إبراهيم علي أبو الخشب
الأستاذ بكلية الدراسات العربية
جامعة الأزهر

أولياء الله الصالحون

الناشر
مكتبة القاهرة
لصاحبها: علي يوسف سليمان
شارع الصنادقية بالأزهر الشريف بمصر

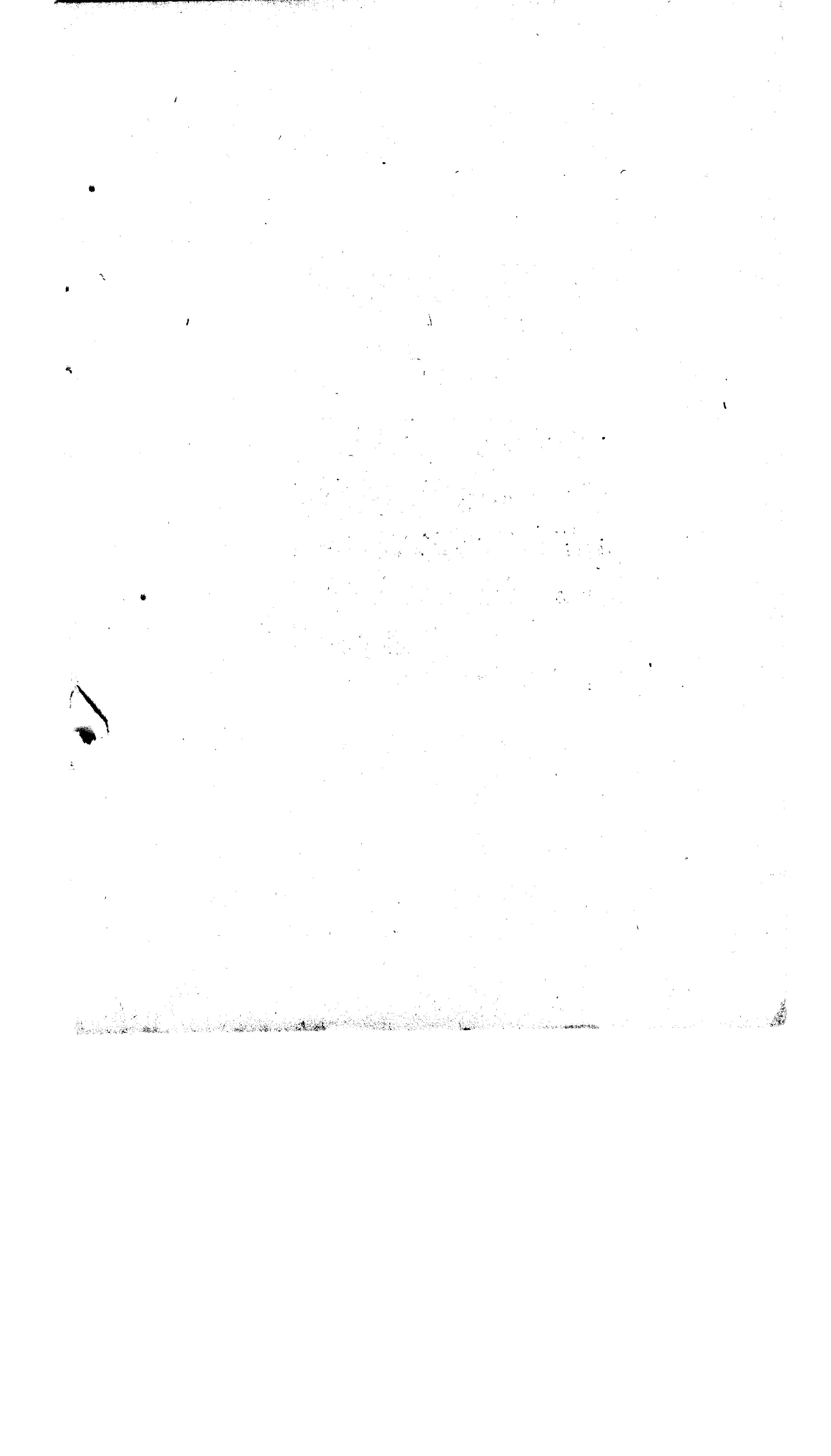
مطبعة
محمد عاطف وسيد طه وشركاهم
[illegible] حارة الروم ت ٩٠٤٩٩٤

الطبعة الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم

استفتاح

أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .



مقدمة

ما من شك فى أن لله سبحانه وتعالى أسراراً فى خلقه لا يعرفها سواه ، ولا يستطيع إدراك كنهها غيره ، وما من شك — كذلك — فى أن هذه الأسرار لا ترتبط بأسباب من العلم والمعرفة ، والصلاح والتقوى ، والسلامة والعافية ، والصحة والمرض ، والغذاء والتربية ، والبيئة والنشأة ، لأنه جل جلاله الخالق المختار « لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون » .

ونحن قد تعارفنا — فى عالمنا الذى نعيش فيه — وتصرفاتنا التى نأتى بها ، وسلوكنا الذى نسلكه ، وأحكامنا التى نصدرها — أن نلتزم المنطق ، ونخضع للمقدمات والنتائج ، ونتقيد بالعرف والعادة ، ونجعل لكل ذلك اعتباراً من الحسن والقبح ، والرضا والقبول : والوجود والعدم ، والاقتناع والتسليم ، أو ماشاكل هذا من الصواب والصدق ، والحق والباطل ، والرأى والخرافة . . . لأننا محدودون فى تفكيرنا القاصر ، وعقولنا الصغيرة ، ولأننا إنما ننزل النتائج على المقدمات التى نتوهم أن لها اتصال السبب بالمسبب ، والعلة بالمعلول ... وهى — فى الواقع — ربما كانت بعيدة عنها ، أجنبية منها ، لا يصل ما بينها وبينها إلا التناقض والعناد ، والغرابة والاستحالة ... أما أفعال اللطيف الخبير ، فإنها وراء الحدود والحواجز ، والأبعاد والنهايات ، والإدراك والمنطق ، يعطى البخيل ، ويحرم الجواد ، ويأخذ النافع من الأولاد ، ويترك الكسيح المريض ، وينبت فى الأرض السبخة الشجرة الفارهة ، ويجعل فى الخصبة العشب الهزيل ، ولهذا جاء على لسان بعض العارفين :

وَدَعْ الاعتراض فما الأمر لك   ولا الحكم فى حركات الفلك
ولا تســـل الله عن فعله   فمن خاض لجة بحر هلك

وكان من كمال العقيدة فى الرجل المسلم إيمانه بالغيب « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » وذلك معنى العبودية لله ، لأن العبودية لا تقوم إلا على التسليم والإذعان ، والانقياد والطاعة ، وهو أشبه بما يسمى فى لغة الهوى والعشق ، واللوعة والصبابة ، بالحب الأعمى ، ولعله إنما قيل له ذلك من قبيل المجاز فى الإسناد ، كأن صاحبه لما كان لا يتطلع إلى هذا المحيط ، ولا يشرئب إلى هذا الأفق ، ولا يحاول أن يبحث عن تلك الظواهر كان كالأعمى ، ثم بالغنا فوصفنا حبه بالعمى ، ويقولون فى ذلك عين الحب حولاء ... وحبُّك الشيء يُعمى ويُصم ، وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... وغير هذا مما نجد بسطه وتفصيله ، وشرحه وبيانه ، فى مظانه من المطولات والكتب ، والأخبار والنوادر ، والملح واللطائف ، ومن الطيش والحمق والجهل والسفه ، والزيغ والإلحاد ، أن ينكر منكر صحة هذه الدعوى ، أو يشك بعض الشك فى سلامة بنائها الذى تقوم عليه ... إلا أن المكلف العاقل امتثالا لقول نبيه ﷺ : « أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » يقول ليس لنا أن نُسَوِّىَ بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وأن نقرن التقى الصالح ، بالغوى الطالح ، والذى يمشى على السنن السوى ، بالمتخبط فى الليل البهيم ، والطريق الملتوى ، وأن نقول للمخطىء أصبت ، وللمصيب أخطأت ... فإنه تركيز للمنكر ، وتمكين للشر ، وتقوية للباطل ، وبذر لبذور الفساد ... والإسلام يوجب علينا أن نقاوم الأعوجاج ، ونقضى على الجور ، ونحارب الظلم والطغيان ... فإكرام العالم ، واحترام التقى ، ومجاورة الصالح ، وعشرة المستقيم على الجادة ، والارتباط بأسباب أهل الورع والزهد ، والدين والخلق ، والأدب والسلوك ... مما يقضى به الذوق واللياقة ، والكتاب والسنة ، والعقل والشرع ... وولى الله حين

يكون دينه حميداً ، وخلقه مجيداً ، ورأيه سديداً ، وفكره رشيداً ، واستقامته واضحة ، وخيره بادياً ، وبره مبذولا ، ومعروفه شاملا ... يكون احترامه ، واعتقاد فضله وعلو منزلته ، والاستعانة به من الأشياء التى لا تتنافى مع الإيمان الصحيح ، والعقيدة السليمة ... إذ أن الآية الكريمة : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » تدل بالمقابلة على أن الاختلاط والمصاحبة ، والود والألفة ، والنسب والمصاهرة ، والإكرام والتبجيل ، إنما هى لهؤلاء الذين طهرت أعراضهم ، وسمت نفوسهم ، وسلمت عقائدهم ، وزكت أرواحهم ... والمسلم الذى أوجب الدين عليه أن يتخير صديقه وجاره وأم أولاده وأن يكون مقياسه فى ذلك كله الورع والتقوى ، والعفة والزهد والدين والمروءة ، والأخلاق والأدب ، لا يتردد فى أن هذا كلام صادق.. وهذه من القضايا البديهية التى لا يكابر فيها إلا معاند ، ولا ينكرها إلا أحمق... وهؤلاء الذين يحاولون تنافر القلوب ، وانصراف الأفئدة ، والتشكيك جد التشكيك فى ولاية الأولياء أقل ما يقال فيهم إنهم دعاة فتنة ، ورواد فرقة ، وطلاب نفور ، وبغاة خلف وكراهية ... وقد يكون عذرهم أنهم يرجون السلامة للناس فى دينهم فلا يحملونهم على التواكل ، ولا يصرفونهم إلى الضعف ، ولا يأخذون بأيديهم إلى التى هى أسوأ ... وبخاصة حين أصبح كثير منهم يتمسح بالولى ، ويترامى على أعتابه ، ويتمرغ فى ترابه ، ويتوسل إليه ، ويطلب منه ما حقه أن يتوجه به إلى الخالق المبدع ، والبارىء المصور ، وهى دعوى يخيل إلىّ أنهم فيها ليسوا بصادقين ، لأن الإسلام وإن كان يدعو إلى القوة ، ويحارب الخنوع ، وينهى عن الاستكانة ، ويمنع الضعف ، ويقول قرآنه : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » ويقول نبيه المصطفى ﷺ : « وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » إلا أنه مع ذلك لا يحب اختلاف الصفوف ، وتنازع الأهواء ، وتصدع الشمل ،

وتنافر القلوب ، ويطلب دائماً أبداً إلى هذه الأمة أن تتلاقى على محجة واحدة ، وهدف واحد ، وينادى بأعلى صوته قائلا « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » ولا يمارى إنسان أنهم فى تعرضهم لهذه المسائل يتعرضون لها بشكل ينبىء عن الخصومة ، ويحمل على الخلاف ، ويثير الضغائن والعناد ... والأمر لا يعدو أن يكون محل نظر — على الأقل — أو من قبيل ما يقولون عنه « فيه قولان » وكان الأجدر به أن يعالج بأسلوب حازم ، وطريقة مثلى ، ونهج قويم ... لكن الذى ابتلى المسلمين بالتنازع على الخلافة بعد موت الرسول الأعظم ، وابتلاهم بالشيعة والخوارج بعد حادثة التحكيم فى عهد على بن أبى طالب رضى الله عنه ... ابتلاهم بالطائفية والمذهبية ، والولوع بالنزاع والرأى إلى حد الأفن والهوس ، فصاروا يخلقون من الحبة قبة ، ويجادلون فى أن عيسى كان رفعه إلى السماء بجسمه وروحه أم بروحه فقط ، وغير ذلك من كل ما ورد فيه نص يحتمل التأويل كأنهم المعنيون بالآية « ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » ولو تدبروا بعض التدبر فى قول رب السماوات والأرض « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » لوجدوا أن الباب واسع ، والطريق واضح ، والمهيع فسيح ... وأن وصف الإيمان والتقوى ، حرى بأن يجعل سواداً عظيما من الناس فى طبقة الأولياء ... ولهذا فإنى أحب لهذا النفر من المسلمين ألا يصرفوا من وقتهم هذا الفراغ فى الاعتراض على الأولياء والمحبين لهم ، المترددين على بيوتهم ، وأن ينفعوا الدين من نواح أخرى فإنه لا يزال فى حاجة إلى الدعاية والإعلان ، والتنويه والبيان ، والشرح والإيضاح ، والتطبيق على الحوادث والتصرفات تطبيقاً يدل أعداءه على أنه دين الإنسانية كلها ، الذى يعالج الأدواء والأمراض ، والأسقام والعلل ، ويصلح لأن يجارى الزمان والمكان مهما اختلفت المناسبات والمشاكل . . . وكأنه صلى الله

عليه وسلم حين يقول : « هلك المتنطعون .. هلك المتنطعون » إنما كان يرمى إلى النهى عن هذا التزمت الفاحش ، والتشدد القاسى ، والخلاف الأهوج . . .
وما رأينا فى عصر النبوة مثل هذا مع أنهم كانوا يتباينون فى المآرب والآراء ، والمنازع والاتجاهات ، والعمل والاعتقاد ، فى كثير من القضايا والمعانى التى أخذوها عن رسول الله .

يطيل أحدهم صلاته لأنه رآه يطيل ، ويقصر الآخر لأنه رآه يقصر . . وقد يتناظرون فى ذلك ويذهبون إليه ليقضى بينهم فيقول لكل منهما أنت على حق... كهذين اللذين ذهبا إليه لينصف المحق من المبطل فى قراءة فى سورة الفرقان ، فلم يكن منه إلا أن قال : اقرأ يا فلان ، وفى نهاية القراءة قال له : نعم هكذا نزلت ، وللثانى اقرأ وفى نهاية القراءة هكذا نزلت ثم قال « نزل القرآن على سبعة أحرف » وما كان يرضى أن يقوم النزاع بين مسلم ومسلم على أمر تافه ، أو مشكلة بسيطة ، وينهى عن الاختلاف ، ويقول : « إنما أهلك من كان قبلكم كثرة اختلافهم » .

وأنا فى هذا البحث — المتواضع — عن « أولياء الله الصالحين » أود أن أكون همزة وصل لا همزة قطع لأنى بلوت من الحالين ، وجربت من الفريقين ، ما جعلنى أجزم بأن الطرفين فى حاجة إلى حكومة منصفة ، وقاض عادل ، وأرجو أن يجدوا فى ذلك الكلام ما يشفى وينفع . . .

اشتقاق كلمة الولى

أصل مشتقات هذه الكلمة ترجع إلى الولى على وزن الضرب والقتل وهى مصدر بمعنى الاقتراب والدنو ومن ذلك قول بعض الشعراء — كما فى لسان العرب — وشط وَلْيُ النوى إن النوى قذف . . . وفى مختار الصحاح : الوَلى بسكون اللام القرب والدنو .. يقال تباعد بعد ولى أى بعد قرب .. وكل مما يليك أى مما يقاربك .. والمولى ابن العم والناصر .. والموالاة ضد المعاداة ... والولاية بالفتح والكسر النصرة وفى مفردات القرآن للراغب الأصفهانى مايفيد ذلك أيضاً إلا أنه زاد أن ولى أصلها « فعيل » على زنة غريم وجريح وقتيل يراد منها اسم الفاعل واسم المفعول ، ولهذا جاءت الكلمة مضافة إلى الله سبحانه وتعالى ومضافة إلى الناس .. ففى الإضافة إلى الله يكون ولياً للناس بمعنى الناصر لأنه الذى يدفع الشر ، ويرد الكيد ، ويمنع الأذى ، ويحول بينهم وبين الوقوع فى المهالك « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » . . وفى الإضافة إلى الناس تكون بمعنى اسم المفعول لأنهم الذين تقع عليهم النصرة ، وينتفعون بولايته لهم وإحاطته بهم ، وذياده عنهم . . . على أننا حين نتمشى مع الآية « ولينصرن الله من ينصره » ونذعن بأن هناك نصرة من العبيد لله ، نرى أن المؤمن ولى الله بمعنى أنه ناصر له بإقامة حدوده ، وإعلان كلمته ، ونشر دعوته والغيرة على حرماته، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، والعمل جهد ما يستطيع على أن يكون سلطانه قاهراً ، ودينه ظاهراً .

والعرب تصرفوا فى الكلمة تصرفات مختلفة حتى أطلقوها على السيد المالك للعبد ، وكان من المتعارف عندهم أن جناية العبد وديونه يتحملها وليه — يقصدون بذلك سيده — وما زالوا يقولون ولى ومولى إلى أن كانت كلمة مولى تتناول السيد والمسود .. ثم انتقلوا من المولى بمعنى السيد إلى أن صارت المولى بمعنى المحب والحبيب .. ويقول بعض المتطرفين مخاطباً من تملك قلبه ، واستولى على هواجسه ، وأصبح شغله الشاغل ، وهمه الدائب : ولَيْلَهُ السَّاهد ، ونهاره المضنى ...

مولاى كن لِيَ وحـدى ··· فإننى لك وحــــدك
وصن بحقــــك عهدى ··· فإننى صنت عهــــدك

وقول بعض الفقهاء :

مولاى إن غبت فلا تستمع ··· فىَّ لقول العائب الغائب
وقل على مذهب أصحابنا ··· لا ينفذ الحكم على الغائب

ومن الغريب العجيب أنهم كانوا يقولون للأنثى « مولاة » بالتاء التى هى للتأنيث مع خلو اللسان والقاموس منها وإن كانت قد وردت على لسان بعض الشعراء إذ يقول :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه ··· بيد تقر بأنهـــا مولاته

ويقول جماعة من الأئمة ومن سنن الوضوء « الموالاة » ويقصدون بها أن يكون غسل العضو بعـد العضو مباشرة من غير فتور ولا توان ... ومن ذلك الموالاة بمعنى التعهد والرعاية ، والعناية المتكررة ، والحياطة الدائمة ، والرجوع إلى الشىء المرة بعد الأخرى . . . ومنها جاءت التولية على الولاية ... أو لعل هذه المعانى المأخوذة من الولى على وزن الوعى وهو المطر الذى يهطل دفعة ثم دفعة ، ومنه ما جاء فى شعر ذى الرمة ...

لى وليـــة تمرعْ جنانى فإنّنى

لمـــا نلت من وَسْمىٍّ نعماك شاكر

ومن أظرف ما صادفنى أثناء البحث عن هذه الـكلمة أن الولية هى البرذعة التى تجعل على ظهر الدابة ليركب عليها الراكب ، ومن هذا جاء فى الحديث النبوى أنه ﷺ نهى أن يجلس الرجل على الولايا ـ البراذع ـ وقال ابن منظور إنه يقصد إلى أن الجلوس عليها يجعل الشوك يعلق بها فتتأذى به الدابة حين وضعها على ظهرها ، وهو أسلوب من أساليبه صلى الله عليه وسلم فى إرشاده للأمة فى معاملة الحيوان رفقاً به ، وشفقة عليه ، وتلطفاً معه ، لأنه جسم يحس ، وروح مخلوقة لله الذى فطر السماوات والأرض ... وقد ذكرت أثناء عثورى فى كتب اللغة على « الولية » ما يـكنّى به بعض أهل ريف مصر عن زوجته إذا أرادوا أن يتفادوا ذكرها ويطووا إعلان اسمها فلا يجدوا أخف فى النطق وأعذب على السمع من هذه الـكلمة ... ولا أدرى إن كانوا يريدونها مؤنث الولى بمعنى الناصر والصديق والسيد والحليف أم إنهم يريدونها على معنى آخر .

وقبل الإسلام كانوا يقولون فلان ولى هذا الدم على معنى أنه هو صاحبه الذى له حق المطالبة به ... أو التنازل عنه : وكانوا يطلقون المولى على الحليف وهو من انضم إليك فعز بعزك وامتنع بمنعتك ، وكان هذا الحليف عندهم أشبه بالولد الذى يتبناه المتبنى ويرى أنه مطالب بالذود عنه والانتصار له ... ولما جاء الـكتاب الـكريم — وكان من عادته معهم أن يقرهم على بعض الأخلاق تركهم عليه — ولم ير بأساً من أن يكون الرجل حليف الرجل ما دام ذلك على البر والتقوى ، والنفع والإصلاح، وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مولى القوم منهم» وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » وقال : « من تولانى فليتول علياً» وكان الصحابة رضوان الله عليهم أشد الناس حرصاً على هذه الموالاة تقوم بينهم مقام

القانون تحملهم على أن يتعاطفوا ويتناصروا ويتواصلوا فى الله إلى أبعد حدود الاتصال غير ناظرين إلى الغنى والفقر ، والمجد والشرف ، والأصول والأنساب ، والعبيد أو الأسياد ... ومما أنبأنا به التاريخ أن سالماً مولى أبى حذيفة كان فى الأصل مملوكاً لثبيتة زوجة أبى حذيفة فلما أعتقته والاه زوجها أبو حذيفة هذا وكان يحبه أشد الحب ويحترمه إلى أبعد حدود الاحترام ، حتى لقد قيل إنه أوصى أن يدفن إلى جانبه، فماتا — معاً — فى إحدى الغزوات ، ولما تفقد المسلمون القتلى بعد نهاية المعركة وجدوهما كل إلى جوار صاحبه ، ورأسه إلى جوار رأسه ، ويقول بعض الرواة إنهما كانا على حالة تعانق ... وسالم هذا هو الذى صح فى الخبر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال عند موته حينما سأله بعض المسلمين أن يوصى بالخلافة لابنه أو لأحد الطيبين الأبرار ، فرفض وأمر أن تكون شورى ... ولو كان سالم حياً ما رأيت أن تكون لرجل سواه ...

الكرامة والولى

الكرامة الأمر الخارق للعادة الذى يُظهره الله على يد الرجل الطيب إكراماً له بين الناس ، وتقديراً لمكانته ، وإظهاراً لفضله ، وتنويهاً بشأنه ، ليكون ذلك أدعى إلى أن ينزلوه المنزلة اللائقة ، ويضعوه الموضع المناسب ، ويتجنبوا سخطه وغضبه ، وثورته وانتقامه ، وليس معنى ذلك أن له من الفعل والتصرف ، والخلق والتقدير ، ما يساعده على أن يكون من هؤلاء الذين يدّعون الإيجاد والإعدام ، والنفع والضُّر ... فإن هذا هو صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ... ولكنى أقصد إلى أن هذا الصنف من الناس ينتقم الله لهم ، ويأخذ بناصرهم ، ويخذل عدوهم وتأخذه الرحمة بهم ، والغيرة عليهم أكثر من سواهم ... وهذه الكرامة ربما أظهرها الصبيان كما حصل لنبى الله اسماعيل حيث تركته أمه طفلا يبكى من شدة الظمأ ثم أخذت تبحث عن الماء الذى تدفع به عنه غائلة العطش ، ولما أجهدها المسير وأضناها العدو ، آبت فوجدت « زمزم » بين أصابع رجليه تتدفق بالماء النمير ... ومن أجدر بالإكرام وأولى بالعناية الإلهية من الأطفال وهم هؤلاء الملائكة الأبرار ؟

أحب الطفل وإن لم يك لك　　　إنما الطفل على الأرض ملكْ

ولهذا يدخلون الجنة من غير حساب ولو كانوا قد انحدروا من المجوس والنصارى ، والمشركين وعبدة الأوثان ، لأن التعذيب لا يكون إلا للمكلف المذنب ، والتكليف لا يكون قبل البلوغ ... على أن بعض الناس يبالغ فيجعل الكرامة لغير المسلم كما حدث لابن الصياد الذى ظهر فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وادعى أنه ينبىء عن الغيب وقد امتحنه الرسول وخبأ له سورة الدخان فقال له « الدخ الدخ » فقال له أخسأ يا عدو الله فلن تعدو قدرك ... ولهذا فإنه لا تلازم بين خوارق العادات وبين الولاية ، لأن الخوارق تظهر على يد غير الولى

كهؤلاء المشعوذين من السحرة الذين يستخدمون الجن ويعرفون خواص الأسماء والحروف . . وربما ظل الولى مغموراً لا يعرف أحد فضله ولا يدرك منزلته ، ولا يقف على جليّة حاله إلى أن يموت فيضوع عطره ، ويعلو ذكره ، ويشع نوره، ويتبين الناس مقامه ، ويجرى على الألسنة رطب حديثه . . بل إن بعض الأماجد من أولئك الأولياء يتعمد التواضع وخمول الشأن إلى درجة أن ينكره المعاصرون ويلفظه الآدميون ، ولا يعترفون له بأكثر من كونه مخلوقاً يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . . ولذلك رأينا المدققين من المحققين يعرفون الكرامة تعريفاً — على حد قول علماء المنطق — جامعاً مانعاً فيقولون : « الأمر الذى يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبى كلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أم لا » . . . والكرامة من جهة كونها خارقة للعادة تشارك المعجزة التى تظهر على يد مدعى الرسالة إلا أن الفرق بينهما أن المعجزة مقرونة بدعوى التحدى بخلاف الكرامة فإنها مجردة عن ذلك فضلاعن كونها لا تكون على يد نبى ولا رسول .. وعلى هذا فإن الولى إنسان له ما للأناسىّ من الخصائص والمميزات . . غاية ما هنالك أن الله سبحانه وتعالى أمده بنوره ، وأفاض عليه من فيضه ، ووهب له من هدايته ، وحباه من جوده ، وأعطاه من سَيْبه ، ورزقه من توفيقه ، ما وصل به ما بينه وبينه ، فامتلأ قلبه به ، ويقينه منه ، فلم تشغل جوارحه إلا بذكره ، ولم يتجه وجهه لغيره ، ولم يخف إلا منه ، ولم يحسب حساب أحد سواه « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . . وبقدر ما تكون الولاية على علم ، والعبادة على بصيرة ، تكون درجات المؤمن عند الله جل جلاله يوم القيامة . . وقد نطق القرآن بهذا إذ يقول : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقرأ بعض القراء : « إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ » برفع لفظ الجلالة على الفاعلية على أن تكون الخشية من الله لعباده العلماء : . وهو — حينئذ — أشبه بقول القائل :

أهابك إجلالا وما بك قدرة على ولكن ملء عين حبيبها

وقد يؤدى هذا المعنى الحديث « إن فضل العالم على الجاهل كفضلى على أدنا كم رجلا » : وهى قضية ظاهرة التعليل ، واضحة المعنى ، معقولة السبب ، لأن الذى يمتثل وهو يعرف قيمة الامتثال ، ويدرك الغرض من أمر الله إياه ، وتكليفه له ، غير هذا الذى لا يكون همه من الاستجابة إلا الخروج من العهدة ، وإسقاط الواجب ، والانقياد بحكم العادة لا بحكم العبادة . . ونحن نرجو أن يكون المؤمن فى طاعته لربه ، وخضوعه له ، ونزوله على أوامره فى تكليفه بالواجب ، ونهيه عن المحظور مذعناً إذعان راغب راهب ، لا يقصد إلا رضاه ولا يبغى ما وراء عفوه الشامل ، ورحمته الواسعة . . وهم بهذا سيكونون أولياءه المخلصين ، وأصفياءه المتقين ، وعباده المقربين « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » . . ولعل من فضل الله على هذه الأمة أنه جعل لها هذا الدين سمح الرحاب ، فسيح الجناب ، واضح المعالم : كريم الآداب والأخلاق . لا يضيق بقاصد ، ولا يثقل على متعبد ، ولا يشتد على مكلف ، ولا ييأس منه راج ، ولا ينفض يده آمل « وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل» ولهذا يقول النبى صلوات الله عليه :« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» لا يعنيه من المؤمن أن يقتل نفسه كداً وجداً . وتعباً ونصباً ،بمقدار ما يعنيه الإخلاص فى القصد إخلاصاً تتجلى فيه العبودية الحقة ، والخضوع الصراح . . وهذا هو معنى « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى » . وهو يتلاقى من قرب بالحديث الآخر :« أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل » . وسر الحب فى دوام الاتصال بالله لا فى كثرة القيام والركوع والصوم والفطر ، والحج والعج ، والزكاة والصدقة « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » . وبذلك تفاوتت الدرجات ، واختلفت المنازل ، وكان هنالك أبرار ومقربون . .

التصوف والولاية

يقولون إنّ التصوف مأخوذ من لبس الصوف الذى هو شعار الخشونة والزهد ، والتواضع والانكسار ، والورع والأدب، والحرمان والجوع ، والمجاهدة الشاقة ، والتجلد الدائب ، والصبر الجميل ... وهو رأى من الآراء التى يستعرضها الكاتبون عن هذه الكلمة وأصل نشأتها ، وسبب وجودها، ومصدر تاريخها... إلا أن قوماً آخرين يرجعون اشتقاقها — إذا صح أن يسمى ذلك اشتقاقاً — إلى هؤلاء الذين كانوا يقيمون بصُفّةٍ ارتضوها مسكناً فى داخل مسجد رسول الله ﷺ ، وكانوا يعيشون مما يتصدق به عليهم أهلُ اليسار والنعمة ، والثراء والغنى ، والبر والمعروف ، فلا يفارقونها إلا لحضور الجماعة ، أو الاستماع إلى درس فى فقه الدين ، وبيان الحلال والحرام . ولكن إذا دعى داعى الجهاد لبّوا صوته ، وأجابوا نداءه .. وكانوا كما يقول عنترة :

أسود غاب ولكن لا نيوب لهم إلا الأسنة والهندية القضب

فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ورأى ما بهم من التواكل والكسل ، والتخاذل والنوم ، والخنوع والاستكانة ، خشى أن يشيعوا فى صفوف المسلمين الاستجداء والفقر ، والذل والعجز ، والحاجة والاستسلام ، فطاردهم منها ، وحال بينهم وبينها ، وهدّدهم إن هم عادوا ثم قال كلمته الخالدة : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة »... وكأن التصوف بهذا المعنى يهدف إلى شظف العيش ، والرضا بالقليل منه ، واختيار الخشن الوعر ، الغليظ القاسى ، وبخاصة حين تتيسر الرفاهة والرغد ،

وتتسنى السعة والنعمة. وتتاح اللذة الحلال، والشهوة المشروعة كصنيع سلمان الفارسى بعطائه المفروض له من بيت المال ، إذ كان يتصدق به ثم يعمل بعده ليدفع جوعه ، ويمسك صلبه ، ويسد رمقه ، وسئل فى ذلك فقال لقد سمعت رسول هذه الأمة الكريم يقول : «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده» ... وقد قال بعض المفسرين للقرآن العظيم إن سبب نزول الآية « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » أن جماعة رأوا أن الأمثل بالاتصال بالمولى تسامت قدرته ، وعظمت آيته ، أن ينقطع المرء عن مباهج الحياة الدنيا ، ويعزف عن ملذاتها ، ويترفع عن نضرتها الخادعة، وزهرتها اللامعة، وفتنتها الخلابة ، وحلاوتها التى تردى أصحابها ، وتقتل أربابها... وهنالك جَبُّوا مذاكيرهم ، وحرموا الطيب والنساء ..

ويظهر أن فكرة تأديب النفس الإنسانية بالحرمان ، والحمل على الصعب ، والقيام بما يرهق القوى ، ويضعف الاستطاعة ، فكرةٌ قديمة خطرت على بال كثير من أصحاب الملكات والعقول، والآراء والتأملات ، لأن الرياضة على المهالك، والتعود على المخاطر ، يجعل المرء لا يبالى بالموت ، ولا يرهب الردى ، ولا يفر من المكروه ، ولا يجبن عن اقتحام المخاوف ، ولهذا وصل إلينا المدهش من أنباء براهمة الهنود فى القديم والحديث ، وتلقيناه بالتعجب ، وهى فى الواقع من الأمور التى يجرى بها العرف والعادة فيما بينهم ، لا تتجاوز أن تكون تربية على نمط خاص ..

والنفس كالطفل إن تهمله شب على   حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وهى وجهة نظر الشرع الشريف حين يقول على لسان خير الخلق على الإطلاق « مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى

المضاجع » مع علمنا أن هذه السن ليست سن التكليف بالفروض والواجبات .. ولكنه غرس الخلق ، وبناء هيكل الدأب ، وزراعة كرمة الحياة المستقبلة ..

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوّده أبوه ..

ولو أن هذا المبدأ - بالذات - أخذ الناس به ما سرى فيهم الفحش ولا شاع التحلل ، ولا دبت الميوعة ، ولا كانت هذه الخنوثة فى الرجال والوقاحة فى النساء، ولا نما الاستهتار بالأعراض والأنساب إلى هذه المثابة الفاضحة ... وعلى كل حال فإن الوقوف عند معالم الشريعة فى الحرام والحلال ، والجوع والظمأ ، والمنع والحرمان ، والزهد والتقشف ، خير ألف مرة من التخبط فى ليل دامس ، وطريق طامس ، ومفازة جرداء ، ومتاهة تيهاء ، ومحيط لا ساحل له ... ومع أننا لا نتهم أحداً من هؤلاء بسوء القصد إلا أننا نقول إنهم أشبه بهؤلاء الفريق من النصارى الذين قال الله فى شأنهم « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » .. ولا سيما بعد أن اختلط التصوف بالفلسفة وظهر ما سموه بمذهب وحدة الوجود . . وقال بعض هؤلاء فى القرن الثالث : « أنا الله — وما فى الجبة إلا الله » وإن كانوا يقولون إن دمه سال بعد قتله وكتب على الأرض — الحلاّج ولى الله — لأنها من الثغرات التى فتح بها أصحابها منافذ للفتنة والخلاف، والشك والزيغ ، والمروق والإلحاد ، والهوى والطيش، واللجاجة والخصومة ، والجدل والمكابرة ، حتى انصرف المسلمون إلى صناعة الكلام الفارغ ، والحجاج الأجوف ، والثرثرة الممقوتة ... واخترعوا مذهب « الظاهر والباطن » وبدعة بعض الجهال بأن فى الدين ما يسمى « بالحقيقة والشريعة » .. وهى كلها تُخْطِر ببالى ما جاء فى كتب الفقه الإسلامى من قول القائلين « هل الأفضل امتثال الأدب أم اتباع الوارد » حينما يعرضون لمسألة

تسييد[1] النبي ﷺ ، وهم يعلمون أن من المبادىء المقررة « الاتباع خير من الابتداع » .. والأدب مع الله ورسوله إنما هو فى اتباع الوارد «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وهذا هو معنى كون المكلف ولياً لله ، يعظم شعائره ، ويهتدى بهديه ، ويمتثل تأديبه البين ، وإرشاده الواضح ، ولا يرى الولاية فى خير وراء ذلك كله ..

رب وفقنى فلا أعدل عن سنن الساعين فى خير سنن ..

(١) مرادنا التسويد ولكننا آثرنا هذا التعبير تجنباً لإيهام وصفه بالسواد .

زيارة الأولياء

زيارة الميت بصرف النظر عن كونه من الأولياء أو من غـير الأولياء يندب إليها الشرع الشريف لما فيها من الاتعاظ بمصـيره ، والاعتبار بنهايته ، لأن العاقل اللبيب ، والكيس الأريب ، حينما يستعرض فى مخيلته ، ويطوى فى رأسه ، هذا التاريخ الذى مضى به ، والعمر الذى أفناه ما بين بؤس ونعيم ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وخمول ونباهة ، وعدل وظلم ، وطمع وأمل ، وطموح ورجاء ، ثم ينتهى إلى أن ذلك صار فى خبر كان : ينشد قول القائل . .

إنمـــا الدنيا هبـــات وعوارٍ مســـترده
شدة بعـــد رخاء ورخاء بعـــد شدَّه

أو يستعيد قول أبى نواس . .

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت مابلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام

أويناجي وجدانه بهذين البيتين المملوءين بالإحساس الصادق ، والشعور الصحيح ، والعظة البالغة . .

قلت يوماً لدار قوم تفانوا أين سكانك الكرام علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا ثم ساروا .. ولست أعلم أينا ؟

ويتلو قول قيوم السماوات والارض ، والنجوم والجبال ، والشجر والدواب، والهواء والماء « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا * المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا * ويوم نسيِّرُ الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا * وعرضوا

على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا » . . لابد أن يحاسب نفسه على النقير والقطمير والصغير والكبير ، والهفوة يهفوها ، أو الجريمة يرتكبها . . والدين يأمرنا دائماً أبداً أن نتأمل فى الأشياء وأن نعتبر بالحوادث ، وأن نتعظ بالحركة والسكون ، والحياة والموت ، والقوة والضعف ، والصحة والمرض ، وأن نأخذ من كل هذه الدروس النافعة ، والامثال الحكيمة . وهذا هو قس بن ساعدة الإيادى الذى لم يدرك الرسل ، ولم يقرأ كتاباً ، ولم تبلغه دعوة ، يصل إلى هذا المعنى بفطرته فيقول . .

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها ... تمضى الأصاغر والأكابر

لايرجع الماضى إلىّ ... ولا من الباقين حاضر

أيقنت أنى لامحا ... لة حيث صار القوم صائر

وإذا كان هذا الشأن فى زيارة القبور . . وقد كان ﷺ يزورها ويسلم على أهلها . . ويقول أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون . ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة . . فإن الصالحين من المؤمنين ، والمتقين من المسلمين ، والأولياء من السابقين الأولين ، أولى بالتجلة والاحترام ، والزيارة والاتصال . . وكما يفرح الأحياء بإخوانهم فى الدين يعودونهم فى المرض ، ويواسونهم فى الشدائد ، ويظهرونهم على دخائل قلوبهم من البشر بنعمائهم ، والألم لضرائهم . . فإن الأموات — كذلك — يدركون ويحسون . . والحياة البرزخية ثابتة لاجدال فيها . .

غاية ما هنالك أن بعض الناس لهم فى زيارة قبور الأولياء وعند مثولهم بين يديهم أشياء ربما كان فيها معنى من معانى الوثنية أو الإشراك بالله وقانا الله عاقبته، وباعد ما بيننا وبينه . . ونحن فى ذلك لا نتحيَّف الحق ، ولا نجافى الصواب ، ولا نخالف ما ندين الله به ، ولا نتملق أحدا فيما يجب أن يكون . . ولا ينكر عاقل ما يفعله ضعاف الإيمان من السذَّج الذين يقتحمون الأضرحة ويناجون الميت بالشكاية ممن ظلمهم ، واستعدائه على من اعتدى عليهم ، والانتصار به على من نالهم بمكروه . . وربما زادوا الطينة بلة فرفعوا إلى رحابه مكتوباً سجلوا فيه ما يطلبون ، وكتبوا فيه ما يحسون، واستصرخوا به استصراخهم بالله الذى يأخذ من الجمَّاء للقرناء، وينصف الضعيف من القوى، ويرد الحقوق لأصحابها « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » لأن هذه لا تجوز بحال ، ولا يسندها مقال ، أو يفتى بها إنسان ، أو يدافع عنها لسان ، اللهم إلا فى دنيا الباطل ، وشريعة الحمقى ودستور المغرورين لأن الذى يُلتجأ إليه فى الحاجات ويُفزع إليه فى الملمات « الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . . وكذلك نذر النذور باسمهم لأن النذر لا يكون إلا لله . . وفى يقيننا أن المسلم لا يلزمه الوفاء به على هذا الشرط الفاسد، ومن الواجب عليه أن ينفقه فى سبيل الله غير متقيد بشكل خاص . . وهو أشبه بالوقف الذى انقطعت جهته ويتحتم صرفه على الفقراء والمساكين .. وإذا صح أن يعذر أصحاب هذا الصنيع بجهلهم — ولا عذر فى دار الإسلام كما يقول الفقهاء — فلا يصح أن نلتمس العذر للوعاظ والمرشدين وعلماء القرى والأمصار الذين يسكتون عن هذه البدع دون أن يحاربوها حرباً شعواء، ويقضوا عليها القضاء العاجل. .ولا سيما صناديق النذور التى تباركها وزارة الأوقاف ، وتجمع فيها هذه الأوساخ ، لتوزيعها — بعد ذلك — على سدنة المساجد وخدمها ممن لا تجوز عليهم الصدقة ، ولا تُصرف لهم الزكاة ... وقد يقول قائل إن هذا باب من

أبواب البر إذا نحن أغلقناه لم نفتح سواه ، أولم نستعض منه بآخر ، وهو ناحية من نواحي البذل الذى لابد منه لصلاح حال الأفراد والجماعات ، ومن اللائق أن ننظم إنفاقه والانتفاع به بدل أن نمنع مايجىء منه .. وأنا أقول إن الدين الإسلامى يهمه أولا وقبل كل شىء تصحيح الأوضاع . . لأنها فى ذاتها خير ، والعمل عليها بركة . وإن كان الناس يقولون العبرة بالنتائج ، فان العبرة عنده بالمقدمات السليمة التى لاغبار عليها ، والوسائل التى لاتحوم حولها شبهة الباطل « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » .

آثارهم وأماكنهم

فى بعض الغزوات — ولعلها فى التحقيق مؤتة — مر النبى ﷺ والمسلمون معه يشتد ظمؤهم إلى الماء ، ورغبتهم تلح إلحاح اللهيف إلى القليل منه ليدفعوا العطش الفاحش ، الذى يلاقيه المسافر ، ويحس به المجاهد ، ويعانيه المغترب عن أهله ووطنه.. فإذا بئر مليئة يبرق شرابها كما يبرق السراب فى الصحراء المترامية، والبيداء الواسعة .. وكأنما هو إنقاذ ما يمكن إنقاذه فى هذه الشدة الملحة ، والبأساء العاتية . وهنالك تسابق المتسابقون إلى ملء الآنية ليبلوا الصدى ، وينقعوا الغلة ويطهوا الطعام ، أويلتوا الدقيق ليصنعوا خبزاً وفطيراً . . ولكن قاصا عريفاً ، ورحالة ماهراً ، أنبأ أنها بئر « معونة » من آثار ثمود «الذى طغوا فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد فصب عليها ربك سوط عذاب» وما كان من النبى ﷺ إلا أن ثارت ثائرته ، وبدا الغضب عليه ، وصاح فى المسلمين أن يريقوا الطبيخ ، وأن يجعلوا ما صنعوا من الخبز علفاً للدواب وأن يتخلصوا بقدر المستطاع من هذه البقايا الملعونة، والمعالم البغيضة ،والأطلال التى تركها هؤلاء الذين سخط الله عليهم،وقد قال العلماء إن ذلك النهى من المشرع الأعظم يدل دلالة واضحة على أن أماكن الصالحين ، ومعاهد المتقين ، ومواطن الطيبين الطاهرين تحف بها الرحمة ، وتغمرها البركة ، وتنشرح لها الصدور ، ويُلتمس عندها رضوان الله ، ويستجاب فى ساحاتها دعاء المتضرع إلى المولى جل جلاله ... وكذلك صح فى الحديث أنه ﷺ أرشدنا إلى أننا ندعو إذا رأينا الديك يصيح .. ونستعيذ إذا طن فى آذاننا نهيق ، وعلل العلماء للأول بأنه رأى الملك ، وعللوا للثانى بأنه رأى الشيطان .. وهو دليل على أن الاقتران بالأشياء ، والارتباط بالأسباب ، والاتصال بالاعتبارات ، لها مدخل وتأثير ...

ولاينكر منكر أن نفحات الله وتجلياته لها أزمنة وأمكنة .. وإذا كان الناس يقولون فيما يدل على أن الشيء يحابى لشيء آخر « ولأجل عين ألف عين تكرم » فإن فى القرآن الكريم مايؤيد هذا المعنى ، وهو قوله تعالى « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ... ولا يزال المتناقلون يتناقلون عن الذى أرسله ربه رحمة للعالمين « لولا شيوخ ركَّع ، وصبيان رضع ، وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا » .

وعبد الله بن عمر رضى الله عنه وهو هذا الصحابى الجليل ، والواعى لأحاديث رسول الله وَعْيَ الحافظ المدرك ، والفقيه المستوعب ، والحريص المتأمل ، كان لشدة كلفه بمتابعة آثار النبوة ، يبالغ فى اقتفاء السنة والتمسح بترابها الطاهر ، وغبارها المتطاير، فلا يكتفى بمحاكاة الرسول، والسير على نهجه ، دون أن يتكىء إلى « شجرة الرضوان » ويجلس تحتها ، ويستظل بظلها الوارف ، لأنها شاهدت تلك البيعة التى بايع المسلمون فيها نبيّهم على السمع والطاعة ، والنصرة والفداء ، ومجاهدة العدو وإعلاء كلمة الله ، وسماها التاريخ بيعة الرضوان ، كما سمى الشجرة كذلك ، لأن الله يقول فى أهلها « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» ... ولم يقل أحد فى هذا الصنيع من عبد الله بن عمر إنه وثنية ، وإلا كان على الصحابة السلام ..

على أن الدعاء والطلب — على شرط أن يكون موجهاً إلى الذى هو يجيب الدعاء ويكشف البلوى ، ويدفع الضر ، ويصرف السوء ، ويرحم الخلق — لايخلو من أن يكون فى هذا المكان الطاهر ،والساحة النقية ، والبقعة المباركة ، وهى المسجد وفيه يقول من اجتباه ربه واصطفاه « إذا دخلتم — أو أتيتم — رياض الجنة فارتعوا» وقد سئل مارياض الجنة فأجاب بأنها المساجد ... وأى مكان يستجيب الله فيه الدعاء أزكى وأنقى من هذا المكان ... ويخيل إلى أن جماعة ممن لايروقهم هذا الكلام سيقولون .. فإذا كان الولى مشكوكاً فى مكانه ، أوتعددت أمكنته ،

أيدعو الداعي حينئذ ثم يكون دعاؤه مظنون الاستجابة . . والجواب على ذلك بالتسليم أيضاً ، لأن بعض العلماء قالوا إن للرجل الصالح أكثر من روح واحدة، وبناء على هذا يكون لسيد شباب أهل الجنة «الحسين بن على» مزار بكربلاء ومصر من غير نكران وهذا القول قاله جماعة من شراح البخارى وغيره وقد كان النبي ﷺ يحدث أصحابه أن من غلبت عليه طاعة من الطاعات دخل الجنة من باب خاص ،وأن الصائمين يدخلون من باب يسمى باب «الريان» وهكذا ،وعندئذ قال أبو بكر الصديق بأبي أنت وأمي يارسول الله .. هل على من يدخل من تلك الأبواب كلها من حرج ؟ فقال له لا .. وأرجو أن تكون منهم ... وقالوا إن الرجاوة من الرسول محققة ... فأبو بكر سيدخل من هذه الأبواب كلها لا محالة فى وقت واحد .. وصوروا ذلك بأن للولى أكثر من روح واحدة ... ولا يضيرنا التصديق بذلك كله لأنه لا يترتب عليه محال، ولا يلزم من حصوله منكر، وبخاصة إذا علم أن اليوم الآخر لا يجرى على نواميس الحياة، ولا يخضع لأساليب الدنيا ، ولا يتمشى مع نظامنا الذى ألفناه .. وأن الحديث القدسي يقول « أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر » ..

وإلى هنا نستطيع أن نقول للذين يهاجمون الأولياء ، ويحاربون زيارتهم ، ويمنعون التردد على أمكنتهم، والاقتباس من نورهم ،والتملى من الخير الذى فى ساحتهم وما يُفيض الله فى رحابهم ، إنكم تجاهدون فى غير عدو ، وتقطعون سبحكم لعمل لايجدى وتجلبون لأنفسكم مقت جماعة من المسلمين لا يرضيهم إلا أن يرددوا مايقول قيس بن الملوح :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وإذا كان جماعة منكم يعملون باسم « تقريب المذاهب » للتوفيق بين الخوارج والشيعة وبين أهل السنة بحجة أنهم سيتلاقون عنـــد هدف واحدهو الإيمان بالله بصرف النظر عن الأمور الأخرى التي فسقوا بها عن أمره، وخالفوا فيها نهيه ،وهى فى الواقع محاولة لاثمرة لها، ولا جدوى منها . لأنها جمع للمتناقض ، وتقريب للمختلف ، فإن الأولى من ذلك إصلاح ذات البين فى محيط الأخوة المتلاقية ، والقرابة القريبة ، والرحم الموصولة . . .

الكرامة للحىّ وللميت

قد يكون من المعقول أن تكون الكرامة للأحياء لأنها تحمل الناس على أن يحترموهم ، وينزلوهم المنزلة التى تليق بهم ، كما كان الشأن فى السيدة مريم التى أحاطها الله بعنايته منذ الصغر « فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » إذ كانت فاكهة الشتاء تجىء إليها فى الصيف ، وفاكهة الصيف تجىء إليهـــا فى وقت الشتاء ، لا يعرفون مصدرها ، ولا يرون حاملها ، ولا يحسون متى جاءت إليها .. وكرامتها الكبرى حديث طفلها « عيسى » يدافع عن شرفها ، ويعلن عن براءتها وينزه ساحتها من الريبة ، وعرضها من الدنس « فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً . ياأخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا . والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » ... وكما كان الشأن فى قصة الخضر عليه السلام حيث أوحى الله إلى موسى بعلمه وفضله ، وكرامته لديه ، ومنزلته عنده « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا . قال إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا . قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا . قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا . قال ألم أقل إنك

لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا » ... وكما كان الشأن — كذلك — فيما ورد فى الحديث عن عمر « وافقنى ربى فى ثلاث » وفيما ذكر فى سيرته وهو على المنبر فى المدينة المنورة إذ سمعه المسلمون لغير ما مناسبة يقول « ياسارية الجبل » ثم تبين بعد ذلك أنه كان ينادى أحد قواده فى الجيش على بعد ما بينه وبينه من مسير طويل ، وطريق شاسع ، يستغرق الليالى المترامية ، والأيام البعيدة .. وإذا الجنود بعد ذلك يخبرون أن منادياً ناداهم وقائدهم أن ينحازوا إلى الجبل احتماء من العدو، وتفادياً للهزيمة ... وكما كان الشأن — أيضاً — فى قصة أهل الكهف الذين ورد ذكرهم فى السورة المسماة باسمهم « إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا . نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا » . . .

وقد ورد فى حديث رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين آووا إليه من المطر فانطبقت على بابه صخرة عظيمة : ولما حزبهم الأمر، واشتدت عليهم الحال ، قالوا ندعو الله سبحانه بأعمالنا الصالحة ، وكان أحدهما باراً بوالديه يؤثرهما بالأكل والراحة على أولاده وزوجته ، وكان الثانى قد عف عن مواقعته لامرأة ساقتها إليه الحاجة ، ودفعها ذل البؤس ، وكان الثالث استأجر أجيراً إلا أن الأجير غاب عن وجهه فلم يحضر لاستلام الأجرة ، فاستثمرها له وبعد حين طويل من الزمن جاء إليه ، وكان من غلتها وربحها رقيق وإبل وغنم وبقر .. فقال له سق كل هذا لأنه من أجرك .. ودعا كلٌّ من هؤلاء بما قدم لله من طاعة ، وما بذل من صنيع ، وما اكتسب من خير ، فانفرجت الصخرة شيئاً فشيئاً إلى أن انفسح لهم الطريق ، وظهر الضياء ، وزال الكرب ، وبدلهم الله من بعد عسر يسرا « وما عند الله خير للأبرار » ...

وأما الكرامة بعد الموت فتلك هى حديث الناس ، ومناط الخلاف عند كثير منهم ، وعدد غير قليل من المكابرين المنكرين ، لأنهم لا يرون لها فائدة ولا يعتقدون أنها تعود عليهم بعائدة ، وأن الميت بعد موته لم يعد شيئاً مذكوراً ، فلا جدوى من ظهور الخوارق الدالة على فضله عند الخالق أو المخلوق ، وربما بالغوا فى دعوى « أن الحى أفضل من الميت » فجعلوا لأقل رجل فيهم أو امرأة فضلا على أكبر ولى من الأولياء الصالحين ، من عباد الله المؤمنين ، تمشياً مع هذه القاعدة التى اتخذوها دستورهم فى اللجاج ، ومبدأهم فى الإقناع ... ولكن الشيخ البيجورى شارح جوهرة التوحيد يقول تعليقاً على البيت « وأثبتن للأوليا الكرامة » أى اعتقد ثبوت الكرامة للأولياء بمعنى جوازها ووقوعها لهم فى الحياة وبعد الموت ، كما ذهب إليه جمهور أهل السنة ، وليس فيه مذهب من المذاهب الأربعة يقول بنفيها بعد الموت ، بل ظهورها — حينئذ — أولى لأن

النفس تصفو من الأكدار ، ولذا قيل : من لم تظهر كرامته بعد موته كما كانت في حياته فليس بصادق . وقال الشعرانى : ذكر لى بعض المشايخ أن الله تعالى يوكل بقبر الميت ملكا يقضى الحوائج ، وتارة يخرج الولى من قبره ويقضيها بنفسه، واستدلوا على الجواز بأنه لا يلزم من فرض وقوعها محال ، وكل ما كان كذلك فهو جائز الوقوع .. انتهى كلام الشارح .. وما أظن عاقلا ينكره هذا القول لأن الميت صار فى عالم الأرواح ، الذى تزول فيه الحجب ، وتنقشع السحب ، وتذهب عنه الحدود والسدود ، والغياهب والظلمة، فهو يحلق كما يشاء ، ويسبح حيث يريد.. وإذا كان تكريم الله له مع هذا الجسم المعتم الثقيل ، وتلك الأغلفة التى تحول بينه وبين الأشياء .. فإن تكريمه له وقد صار فى عالم الملكوتية أولى وأعظم . . لأنه أصبح قريباً منه لا تشغله عنه شواغل الدنيا ، ولا ضرورات الحياة «مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

التوسل بالأولياء

ورد في القرآن الكريم : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » والوسيلة فعيلة بمعنى فاعلة من الفعل وسل أو توسل كتوصل أى جعل ما بينه وبين المتوسل إليه سبباً موصولا ، ووشيجة مربوطة ، وقربى قريبة ، ومودة ملحوظة ، ونسباً مرعياً ، وحباً مقدساً ... وهى وإن كانت فيما أجمع عليه المسلمون بالعمل الصالح ، والطاعة المطلوبة ، والتكاليف المحتومة ، إلا أن تلك الأعمال والطاعات ليست قاصرة على مايدخل تحت قواعد الإسلام الخمس ، لأن الدين حين طلب إلينا أن نصوم وأن نصلى وأن نزكى ونحج البيت الحرام ، طلب إلينا — كذلك — أن نتودد إلى أهل العقيدة السليمة ، والنزعة القويمة ، والإيمان الصحيح « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر » ... وجعل حياتنا متشابكة ، ومصالحنا مشتركة ، وارتباط بعضنا ببعض لابد منه « وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان » ... فنحن لهذا تربطنا ضرورة البقاء ، وتصل أسبابنا حاجات العيش ، وتجمع مابيننا أواصر لايمكن أن تقطع ... وعلى ذلك فتوسل المخلوق بالمخلوق ، وافتقار الإنسان إلى أخيه الإنسان ، وبخاصة إذا كانت هنالك من الدوافع الماسة مايجعل الفرد فى هذا المحيط أشبه بالعضو من الجسد الذى يكمله ويقوم به بناؤه... وربما انتهت بنا هذه المقدمة — على طولها — إلى قدر مشترك من الحقيقة .. وهو أن توسل الآدمى بالآدمى فيما هو داخل فى حدود استطاعته ، وفيما هو محتاج إليه فى دينه ودنياه لاغبار عليه ، ولايضر هذا بالدين ولا بالدنيا ، وإن كان علماء

الأخلاق يرون ذلك مظهراً من مظاهر العجز يزرى بالمروءة ، وينزل بالكرامة ، ويحط بهيْبة الرجل ، ويقول بعض هؤلاء :

إن من أحوجك الدهر إليه وتعلقت به هنت عليـــــه
ليس يصفو ود من آخَيْتَهُ إن تطَلَّعت لشىء فى يديه

ويتلطف بعضهم فيرى أن الناس فى ذلك مختلفون ، فباذل يستريح للعطاء ويهتز للندى ، ويهش للطالب ، ويطرب لنغمة السؤال ، كأنك تعطيه الذى أنت سائله ، فلا غضاضة من الشكوى إليه ، والطلب منه ، والاستعانة به ، والمعوَّل عليه وباذل يساق إلى الجود بكلاليب من نار ، وسوط من عذاب جهنم ، فلا يرى إلا أن عطاءه غل يطوق به رقاب إخوانه ، ويستطيل به على أقرانه ، ويستذل به الأحرار ، وذلك لا يصح لكريم مهما بلغ به العوز أن يسأله ، أو يظهره على حاجته ، لأنه يكشف له عن سوأته ويمكنه من مواطن الضعف منه ، ولهذا يقول قائلهم :

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلا فابذله للمتكرِّم المفضـــــال
ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضاً ولو نال الغنى بسـؤال

وأولئك الذين ينكرون على الناس الوسيلة ينتهى كلامهم إلى أمرين اثنين .. إنكار التوسل بالأموات مطلقاً .. وإنكار التوسل بالأحياء بعد النبى ﷺ .. ويخيل لمن ينظر فى دعواهم هذه أنهم لايعترفون بأن هنالك حياة وراء تلك الحياة الدنيا .. مع أن الإجماع منعقد على أن هنالك حياة وإن كانت تختلف عن هذه الحياة ..

لاتظنوا المـوت موتاً إنه لحياة وهو غايات المنى ..
لاترعْكم هجمة الموت فما هو إلاَّ نُقلةٌ من ها هنا

« ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون» ... ولعلهم تبعاً لذلك كله لا يدينون بدعوى حياة النبي ﷺ فى قبره ، ويكذبون حديث عرض أعمالنا عليه، وسروره بنا ، واستغفاره لنا ... ومن هؤلاء من أمسك بالعصا من الوسط فجعل التوسل بالأحياء جائزاً بخلاف الأموات بدليل استسقاء المسلمين فى خلافة عمر بن الخطاب بالعباس بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ... وقد قال عمر فى دعائه — حينئذ — اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فى حياته واليوم نتوسل إليك بعمه . . وكان التوسل لاستنزال المطر بعد أن طال الجدب ، وكثر القحط ، وزاد الإمحال ..

وللمرحوم الشيخ « الدجوى » فى التعليق على هذه الحادثة كلام جميل يتلخص فى أن عمر لم يقصد بهذا الصنيع الإعلانَ عن أن التوسل لا يكون إلا بالاحياء فقط ، ولكنه قصد إلى أن التوسل يجوز بالمفضول والفاضل بدليل أن المسلمين كان فيهم على فى هذا الوقت وهو خير من العباس ، وفيهم عمر أيضاً وهو أفضل بولايته أمر المسلمين .. على أن عمر كان يهدف دائماً أبداً إلى عدم شيوع الفتنة فى صفوف المسلمين ، فهو يأمر بعدم تدوين الحديث لئلا يختلط بالقرآن ويشتبه به ، ويأمر بعدم انتقال المحدثين إلى الأمصار لئلا يوجهوا الناس إلى الاشتغال بالحديث ومدارسته ، ويكون ذلك صرفاً لهم عن القرآن ، ويأمر بقطع شجرة الرضوان التى كان ابنه عبد الله يستظل بظلها ، ويتكىء إليها ، لأنه خشى أن يتخذها المسلمون منسكا للعبادة والطاعة .. وهذه الصلاة التى يرجو الناس بها المطر ، خاف إن أبطأ عليهم الغيث أن ينزل ذلك بقدر النبي عندهم فيظنوا أن جاهه عند ربه قد تولى بموته ، ولم يعد له من المزية ما كان له من قبل « وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أوقتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » .

وكلمة الفصل فى ذلك كله أن الذى يتوسل برجل طيب له عند الله منزلة ، لايجعله شريكا لله فى الخلق والتكوين، والقدرة والإرداة ،ولكنه يتوسل بمكانته الملحوظة ، وقدره المرموق، لأنه عمل مايستحق به أن يكون لهعند ربه هذا الجاه فضلا عن كون ذلك إغراء باقتفاء آثاره، وتتبع أخباره ، والاقتداء به ، والمحاكاة له .. والدين الإسلامى لم يحظر القدوة الصالحة بحال من الأحوال ، وهذا هو الرسول الكريم يحث عليها ، ويغرى بها ، إذيقول « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .. وكذلك التربية الحديثة تقول بها ، وترجع الفضل الأول فى نبوغ النابغين ، وعلم المخترعين ، إلى اتخاذ القدوة ، والجرى وراء المثل العليا من رجال الفكر والمعرفة ، والاجتهاد والسبق، من هؤلاء الذين دوّى بهم التاريخ وطنطنت بأسمائهم الصحف والمجلات ، وكان لهم بين معاصريهم امتياز جعلهم أهلا لهذا الفضل الذى نالوه . والدرجات التى حصلوا عليها :

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوما على الآباء نتـــكل
نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ونفعل مثل مافعـلوا

الصلاة في ضريح الولي

الصلاة فى ضريح الولى نوع من التمسح به ، والترامى على أعتابه ، والمبالغة العظمى فى الزلفى منه ، والتقريب إليه .. وهى وإن كانت مظهراً من مظاهر الحب والولاء ، والإخلاص والوفاء ، إلا أنها أشبه بمودة الجاهل التى تجنى على صاحبها أشد الجناية ، وتجر عليه الوبال الكثير . والعبادة حين تكون لغير الله سبحانه وتعالى تكون من الطيش والجهل ، والبلاهة والحمق ، والسفه والرعونة ، بحيث تجعل العابد لا يمتاز عن الحيوان الأعجم الذى يمشى وراء حيوانيته المظلمة ، التى تُرى الناس من تصرفه وسلوكه ، وسياسته وأدبه ، ورأيه وعقله ، ما يحكم عليه بأنه جدير بقيام الحجْر عليه ، والوقوف فى وجهه فى كل ما يصدر عنه من أعمال . والحبُّ حين يطغى على العقل ، ويطمس على البصيرة ، لا يكون من المودة والإخلاص ، ولا من العشق والغرام ، ولا من الصبابة والهوى ، ولكنه يكون من سوء التدبير . . . وكثيرٌ من الذين يترددون على مزارات الأولياء ، لا يكتفون بالجلوس هنالك ، والإقامة الطويلة فى رحابهم ، والتزام الأدب عندهم ، فى هذا الخشوع الذليل ، والصمت الطويل ، كأنما هم قد وقفوا فى المحراب ، أو تصفحوا سورة من الكتاب . . ولكنهم يُطيلون السجود والركوع ، والقراءة والاستغفار ، والتهليل والتسبيح . . . وهو لون من ألوان البدع التى انتقلت إلينا من ضلالات الأحبار والرهبان من النصرانية واليهودية ، لأن عبادة « الأشخاص » لم تعرف إلاَّ منهم ، ولم توجد إلاَّ فيهم ، وكان مجرد إشادة القبر أو الهيكل على شكل من الروعة والإتقان ، والفن والجمال ، كافياً لاتجاه الناس إلى صاحبه بالتقدير

والتقديس ، والخشوع والاحترام . وقد جاء على لسان النبي ﷺ مايدل على أن بنى إسرائيل بلغوا فى ذلك كله القدح المعلى « لعن الله بنى إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . . والأصل فى عبادة الأصنام والأوثان أنها كانت هكذا . . ابتدأت صورة مجسمة يرمزون بها إلى معنى من معانى القبح أو الحسن ، يذكر الناس حادثة قد حدثت ، أو شأناً من الشئون أصابهم أو نزل بهم ، ثم ينتقلون إلى ازدراء مايرمز إليه الوثن أو احترامه . . ولا تزال السنون تتوالى فإذا الوثن معبود يقدمون إليه القرابين ، ويرفعون عنده الأكف بالضراعة والاستغفار ، ويصلون له الصلوات . . . وكان من المعروف عند أهل مكة فى الجاهلية عن بعض الأصنام فى الكعبة أنها فسقت فى الحرم فمسخها الله إلى حجروظلت لعناته تنصب عليها إلى أن دار الزمان دورته وصار التقديس مكان السخط والاحتقار ، وهنالك كان أبناء آدم وبنات حواء من الوافدين يجعلونها منسكا من المناسك ، وعبادة لابد منها . . وهذا هو السر فى أن الإسلام ينهى عن المبالغة فى تشييد القبر ، وإقامة القبة فوقه ، واتخاذ المسجد فى داخله ، ولذلك فإنه يعتبر تلك الصلاة محظورة لا يصح أن يُتقرَّبَ إلى الله بها ، ولا يجوز للرجل العاقل أن يجعل منها ذريعة إلى الله ، لأنه لا يُتوسل إليه بالمنهى عنه ، ولا يُتقرب إليه بما لا يرضاه . . .

ولا يقول قائل إن ذلك إنما يقال للرجل الجاهل الذى لا يميز بين المعبود بالحق وبين المعبود بالباطل ، وأن الأصل فى الأعمال إنما هى النية والمدار على أن تكون لله . . والنبى ﷺ يقول فى بعض أحاديثه الشريفة « جُعلت لىَ الأرض طهوراً ومسجداً » لا فرق بين أن تكون الأرض قبراً أو مدرسة ، ولا بين أن تكون سوقاً أو ملعباً ، ما دام حالها يدل على طهارتها من الدنس ، وخلوها من النجاسة . . . وهو كلام كان علينا أن نتلقاه بالقبول لو لم يرد فيه ما يمنعه . . والقاعدة التى يقول بها علماء الفقه الإسلامى أن الأصل فى الأشياء الإباحة ما لم يرد

نص يتنافى مع هذا الأصل .. وحكمة التشريع لا يلاحظ فيها أن المتعبد فى الضريح يميز أو لا يميز ، ويستحضر فى ذهنه أن للولى شيئاً من هذه الصلاة أو لا ، إنما لوحظ فيها العموم ، وروعى فيها الأحوط « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » . ومما لا شك فيه أن الذين يصلون فى « ضريح الولى » على أقل التقديرات يزعمون — بينهم وبين أنفسهم — أن للصلاة فى هذا المكان من المزايا والاعتبارات معانى لا تتوفر فى غيره من الأمكنة ، بدليل التزاحم عليه بالمناكب ، والمواظبة الشديدة التى تجعلنا نشك فى خلوص نيتهم لله . . .

وعلى ذلك فإننا ننصح إليهم النصح الخالص ، ونرشدهم الإرشاد الصحيح ، ونوجههم إلى سبيل المؤمنين ، حين نقول لهم إن الولى الذى تحبونه ، والميت الذى تزورون قبره ، لا يرضيه أن يكون عصيانكم لله بسببه ، ومخالفتكم لأمره من أجله ، وانحرافكم عن الصراط السوى بعنوان كونكم فى رحابه ، والتواؤكم عن القصد من معانى تقديره ، فإن ذلك خلط دونه خلط الحمقى والمجانين « قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها . ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . . ويمنعنى حياء المؤمنين ، وأدب المسلمين ، وأنا فى هذا المقام من الإرشاد ، وهذا الموقف من النصيحة ، أن أقول لكم « قل هو الله أحد » لأنى أحسن الظن بكم ، وآمل الخير فيكم ، وأرجو أن تكونوا من هؤلاء الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

ولا يفوتنى هنا أن أقول إن النظام الحالى الذى تقوم عليه أضرحة الأولياء نظام يجب القضاء عليه ، لأنه يساعد على المنكر ، ويُغرى بالمعصية ، ويدل على أننا لم نبلغ من العلم والمعرفة المقدار الذى نستحق به أن يكون لنا مجال فى الأمم الجديرة بالبقاء . . وصلاة الزائر المتردد فيه لو فرضنا أنها جاءت من طريق المصادفة لقلنا إنَّ الخطب هيِّن ، والجلل غير جليل ، والداهية ليست من الفداحة

بهذه المثابة . . ولكن هذه الأضرحة أقامها الذين أقاموها وجعلوا فيها محراباً للامام إلى جهة القبلة لتكون مساجد للأوقات الخمس . . وزاد الطين بلة أن لها أئمة تتقاضى مرتباتها من مال الدولة . . مما يدل على أن الشر مبيّت ، وأن المنكر منوى ، وأن البدعة متركزة ، وأن الدولة تحمى هذا الجهل وتباركه . . فهل يحق لنا بعد زوال هذه العهود المظلمة أن نقول لحكومة « الثورة » التى حررت الشعب من الطغيان والفساد ، والرق والعبودية ، والظلم والجبروت ، والانحدار البغيض ، والالتواء المرذول ، حرريه من الخرافات السافلة ، والضلالات النازلة ، لأن الدين الصحيح لا يسود فى الأمة إلا ويجعل منها دولة قوية بالله عزيزة بالحق ، ناهضة بالصواب . . .

أرباب الطرق

أرباب الطرق هم هؤلاء الجماعة من الناس الذين كوروا عمائمهم ، وزادوا في طياتها زيادتهم في حدودهم ، وغالوا في قيمتهم غلوَّهم في الشريعة المحمدية ، حتى خال على الناس ما يأتون من عمل ، وراق في نظرهم ما يسلكون من طريق .. وهم رعيل من الخلق قطعوا سبحهم للأسفار والارتحال ، وقطع الفيافي والقفار من غير ما فائدة يجلبونها للمجتمع ، أو نفع يجرونه للأمة ، والفائدة كلها — عندهم — تنحصر في الكرم الذي يلاقونه ، والجود الذي يصادفونه ، والمغانم التي يحصلون عليها ، والربح الذي يدره عليهم الاغتراب عن الأهل والقرابة ، والجيران والعشيرة .. وإذا كان هنالك بطالة عن الكسب ، وقعود عن العمل ، وتواكل ونوم ، يجلب للأمة الكساح والمرض ، والخنوع والاستكانة ، والرضا بالدون من حظوظ الحياة . . فإن وزر ذلك كله يعود عليهم وحدهم ، أو على الأقل لهم منه النصيب الأكبر . . وحسبك حين تريد أن تقف على جلية أمرهم ، وحقيقة سلوكهم ، وخططهم التي اختطوها لأنفسهم ليقضوا العام من أول المحرم إلى آخر ذي الحجة ، أن تراقب جماً غفيراً منهم لتنظر فيما هم يقطعون الأيام والليالي ، والشهور والأسابيع ، والفصول الأربعة على اختلاف حرها وبردها ، فإنك لا تجد إلا الموالد والمواسم ، والأعياد والمناسبات ، وهي أوقات تشبه الحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها . . من أراد أن يتفرغ لا يجد من تفكيره وفراغه ما يساعده أن يعطى اسواها شيئاً من التصريف والتدبير ، والاشتغال والسياسة ، اللهم إلا إذا كان له أكثر من قلب واحد في جوفه . . وينسى أولئك الذين رخص عليهم فراغهم إلى هذا

الحد ، وهانت عليهم نفوسهم إلى هذه الدرجة ، أن الدين لا يبغض شيئاً مثل بغضه لأن يعيش الفرد عالة على غيره . . وقد كان رسوله الكريم ﷺ يقول « اليد العليا خير من اليد السفلى » . . . ويرشد الرجل والمرأة إلى أن العمل الذى يدر على صاحبه الكفاف فيه الاحتفاظ بماء الوجه من الضياع ، والإبقاء على الكرامة من الابتذال ، والصيانة للآدمية من أن تهدر « لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب الى الجبل فيحتطب فيبيع خير له من سؤال الناس » ويقول سبحانه وتعالى فى محكم كتابه « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » . . والسعى لطلب الرزق عبادة ليس بعدها عبادة « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » . . وقد جاء جماعة إلى رسول الله ﷺ يتحدثون عن زاهد متبتل ، بلغ من نسكه ودينه ، وصلاته وصيامه أنه تفرغ كل التفرغ لله ، فلم يدع من الوقت لراحته ونومه ، ولأكله وشربه ، وهجر أهله وزوجته واعتكف فى المسجد زاعماً أن المبالغة فى الحرمان إلى هذا القدر زلفى إلى الله يسبق بها التوابين الأوابين ، والأولياء والمتقين . . وهنالك بدا على الصادق المصدوق الغضب الشديد ، ثم قال لهم ومن يخدمه ويقوم بحاجته : . فقال قائلهم كلنا نخدمه ونقوم بحاجاته ونكفيه مؤونة العمل . فقال كلكم خير منه . . ونحب بعد ذلك كله أن نسأل « مشايخ الطرق » ممن ارتضوا لأنفسهم هذا الوضع الشائك الذى جعلهم كالذى أخلد إلى الأرض واتبع هواه ... ما هو هذا الثمن الذى تدفعونه للدراويش فى مقابل ما تأخذون منهم من بر ودقيق ، وسمن وعسل ، وطيور وماشية ، أهو الدعوة إلى الله ، والإرشاد إلى الصراط المستقيم ، أم هو معانٍ أخرى لا نعرفها ، ولا نستطيع أن نفهمها . .

والحق أيها الناس أن هذه مسألة فيها نظر — كما يقولون — لأنكم

لستم من أولئك الذين يحملون لواء الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ولا لواء شيء آخر اللهم إذا صح أن نلغى عقولنا ، وأن نسكت على هذا المنكر وهو نذير ذهاب الأمة ، وضعف الدولة ، وموت الشعب ، وهلاك الأفراد ، وغضب جبار السموات والأرض ، وهى سنة الله فى خلقه « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » . .

وهل هذه الطرق التى تزعمون أخذها عن سيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى أحمد البدوى وليست سوى الحركات التى تشبه الرقص ، وتلك النغمات التى تشبه أنغام المجانين .. ثم ماهو السر فى أنكم لم تأخذواسوى هذه الألفاظالتى تذكرون الله بهاأنتم وأتباعكم ذكراً جافاً خالياًمن الخشوع والخضوع ، والتواضع والأدب .. وهنالك من سيرة هؤلاء فى الدفاع عن الدين ، وهداية الخلق ، وبذل المعروف ، وإشاعة الفضيلة ، والعمل على أن يكون المسلمون أهل العزة والكرامة ، والمهابة والسلطان ، والسيادة والملك ، الشيء الكثير ، وكان من الخير أن تجعلوا منهم قدوة يمشى على سننها سواد المؤمنين ممن يجرون فى ركابكم ، ويتفيؤون ظلالكم ، لأن هذه كلها هى دعوة الرسل ، ووظيفة الأنبياء من لدن آدم إلى أن ختم الله بمن بعث به رحمة للعالمين . . . والإمام الشافعى وهو صاحب هذه المنزلة التى تعرفونها ، والمكانةالتى لاتنكرونها ، لماذا لم يكن عندكم صاحب طريقة تقلدونها وتنقلونها إلى أتباعكم من الدراويش وهو هذا الرجل الذى ملأ طباق الأرض علماً . . صدقونى ياهؤلاء « المشايخ » أنى لمأستسغ أبداً أن تعيشوا فى الدولة بهذا الأسلوب الحقير بعد أن تقدم الزمن ، ونهض الناس ، وتطورت الدنيا ، وصار العالم فى عصر البخار والكهرباء وأصبحت الذرة تحاول أن تضع أنفها فى كل شىء ، وأخشى ماأخشاه أن يكون بقاؤكم على هذه الشاكلة عنوان تأخر الشرق الإسلامى

الذى نعمل له ، ونكافح من أجله . . وإن كنتم تزعمون أن لكم رسالة تحتم عليكم القيام بواجب الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلاأقل من أن تتطوروا مع الزمن ، وتعملوا على أن تتقدموا نوع تقدم ، لأن الحياة كلها تغيرت ولم يبق فى دولة من دول العالم المتوثب للنهوض أثر من رجعية يشبه رجعيتكم التى أنتم عليها الآن .. وإلا فإن الركاب سيتخلف بكم ، وسترون أنفسكم أنقاضاً من أنقاض الماضى المنسى « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

إصلاح الطرق

ربما كان من المبالغة أن نحمل « مشايخ الطرق » كثيراً من جهل العامة من أشياعهم بسبب تلك الخرافات التى يعتقدونها فى الأولياء ،والتى تدفعهم الى أن ينذروا النذور باسمهم ، أو تحملهم على أن يتقدموا لهم دائماً بلتمساتهم من كشف الضر ، ودفع الأذى ، أو زيادة البركة ، ورد كيد الظالم ، ومنع شرور المعتدى ، وغيرها من تلك العرائض التى يكتبونها ثم يقذفون بها فى داخل الضريح ليقرأها الولى ويعمل بما جاء فيها . . وما سوى ذلك وذلك مما يتنافى مع الإيمان بالله .. لأن بضاعتهم من الوعظ والإرشاد ، والعلم والمعرفة ، والترغيب والترهيب ، ليست فقهاً فى الدين ، وبياناً للحلال والحرام ، وحفظاً للكتاب والسنة ، وفهماً لما جاء به محمد ﷺ من تكاليف وأحكام . ولكنها ترهات يتناقلونها ، ويُعنَون بمدارستها ، ويضربون أكباد الإبل لروايتها وعنعنتها ، من طيران سيدى فلان ، وانعقاد مجلس أهل الباطن للنظر فى قضية رفعها إليهم إنسان من المريدين ، لذلك استقر فى قلب « الدراويش » هذا الهراء المكذوب ، وأصبحوا ولا حديث لهم عن صحابى جليل ، أو تابعى محترم ، أو خلق من أخلاق المصطفى فى صفحه وعفوه وحلمه واصطباره ، وأدبه وتواضعه ، وكرمه وجوده ، وهديه واستقامته ، ودأبه على الخير ، وعنايته بالبر والمعروف ، وأصبح من الصعب إلى حد بعيد صرف هذا السواد العظيم الذى استغرق فى الجهل إلى الأذقان . . . ومن أجل ذلك خامرت فكرة « إصلاح الطرق » أو إلغائها رءوس المصلحين من رجال السياسة والتدبير ، والعقل والرأى ، وخطر ذلك للأستاذ الأكبر ، شيخ الجامع الأزهر (١)

---

(١) الرجلان المعنيان هنا الشيخ المراغى والتميمى التفتازانى .

منذ سنين طويلة وكاد ينتهى فى أمرها إلى نهاية محمودة لولا أن شيخ مشايخ «الطرق الصوفية» فى هذا الوقت ساعده عاملان اثنان كلاهما قوى يحسب حسابه، ويخشى بأسه، جريدة من كبريات الصحف، وساعده كذلك السفارة الانجليزية، [illegible] صيحة الإصلاح، ثم بُعثت من جديد فى هذا العهد .. وقيل إن لجنة تألفت لهذا الشأن ومضت الأيام والشهور، واجتمعت وانفضت، ولم يحس أحد أثراً لاجتماعاتها وانفضاضها . . وما من إنسان يَغار على دينه ويرجو له رفعة الشأن إلا وهو يرجو أن يحقق الله هذه الرغبة المباركة، ويستجيب لتلك الأمنية الكريمة، لأن أرباب الطرق على ما هم عليه من نقص يدعو إلى التفكير فى العلاج والإصلاح لهم تأثير فى العامة لا يُستهان به، وأتباعهم من سواد الأميين وأنصاف الأميين يكادون يكونون أكثر من سبعين فى المئة من المصريين، ومن الغبن الفاحش للوطن العزيز أن تتناسى هذه الكثرة دون أن نحسب حسابها من التفكير والتدبير، وأن نهيىء لها سبيل العيش الصالح على أساس من الدين الصحيح والأخلاق القويمة.. ومهما قلبنا المسألة على وجوهها المتنوعة رجاء أن نصل إلى نهاية محمودة، وعلاج ناجع، ودواء يحسم الداء، ويقضى على العلة، فإننا لا نجد إلا زوال كابوس تلك الجهالة التى تهيمن على سلوكنا وتصرفاتنا، وقلوبنا وعقولنا، وتخيلاتنا وأوهامنا، ولا أقصد بزوال هذا الكابوس أن يجعل «المجلس الصوفى الأعلى» الشرط الأساسى فى اختيار «الخليفة» أو النقيب من الذين يقرءون ويكتبون، ويَعْرُفون قسطاً لا بأس به من الفقه الإسلامى والشمائل المحمدية .. فإن ذلك مع كونه يسمو بهذه الجماعة نوعاً ما، ويخطو بها إلى الأمام خطوة فسيحة، إلا أنه وحده لا يكفى ما لم تعمل الحكومة من جانبها على رفع الأمية عن الشعب على مختلف طبقاته، وتجعل ذلك إجبارياً لا بد من كونه يسرى على كل فرد، ورفع الأمية لا يصح أن يتناول «فك الخط» كما

حصل ليستقيم حال الدولة والشعب ، ومعرفة المرء ما له وما عليه في السنين السابقة ، لأن الحياة التي أصبحت تحتم على المواطن أن يعرف ما له وما عليه تستدعي أن يتناول تعليم المرحلة الأولى جميع الأفراد ، وأن يكون المنهج في هذه المرحلة إجمالا واضحاً — على الأقل — للتاريخ السياسي والاجتماعي والأدبي للأمم الناهضة ، والأفراد البارزين الذين حَوَّلوا مجرى حياة الشعوب ، إلى جانب ما يجب أن يتوفر في الرجل الصالح ليكون نواة في بناء دولة ناهضة تأخذ مكانها تحت الشمس .. وأعتقد أن ذلك ليس بعسير على أمة تريد أن تكتب تاريخها من جديد ، لأن العناية منا بالأرض البور لتزيد في الإنتاج ، ولنضاعف في الثروة ، ولنستطيع أن نستغل مواردنا الداخلية ، لا قيمة له إذا كنا مرضى النفوس والقلوب بما نعانيه من تأخر وجهل ، وشأننا — حينئذ — أشبه برجل غني يغزوه السقم وهو غير ملتفت إلى أن ينتفع بثروته ، يبذل منها لطبيب حازم يعالجه ، ويقضي على الداء الذي يحاول أن يفتك به .. وأظننا إذا فتح الله علينا بهذا الإصلاح نأخذ به ، وبهذا العلاج نقضي به على العلة ، كان قد قُدّر لنا أن نرتفع بمستوانا الوضيع ، ونسمو إلى المستوى الذي يليق بشعب عريق في الحضارة والمدنية .. لأننا سنرى بعد ذلك جيلا كله يعمل وينتج ، وكله يفهم ويحاسب ، وكله يغار على حرماته ، ويطالب بحقه ، وينصف الناس من نفسه قبل أن يطالبهم بإنصافه .

وإنا أناسٌ لا توسط بيننـا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ولا أومن بعد ذلك بما يقول القائلون من أن البوليس يفض المجتمعات التي يقيمونها للموالد والمناسبات ، ويقف في وجه أي بدعة من البدع ، ويحارب تلك المنكرات التي يرتكبها فريق من هؤلاء وهؤلاء .. وأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فالقهر والقسوة ، والعُنف والشدة ، والتسلط والبطش ، لا تجني إلا عكس ما يريد الجبارون منها .. وكثيراً ما رأينا المجرمين ينتهزون

فرصة الضغط الواقع عليهم حين يخف وقعه ، وتتراخى حباله ، ثم ينقلبون أشد مما كانوا عليه من الإجرام والعبث .. ذلك لأنهم ليس لهم من ضميرهم الداخل ، وقلبهم الواعى ، وفؤادهم المتيقظ ، ما يردعهم ويحول بينهم وبين ارتكاب الخطأ ، وفعل المنكر ، ومقارفة الذنب ، ومخالطة الجريمة .. وهذه معان إنما يخلقها فى النفس العلم لا الجهل .. وقد لا يؤمن بهذا القول بعض الذين لا يصدقون أن العلم هو الداء والدواء .. وأن القرآن يقول : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » وهو دليل على أن العلم ربما كان وسيلة استفحال المرض ، والاسترسال فى الغى ، والتمادى فى الباطل . وهو إنما يكون كذلك إذا أخذه المتعلم مسائل يحفظها ، وقضايا يبحثها ، وقواعد يُكررها ، دون أن يتفقه فيها ، وينتفع بلبابها من الخير والمعرفة . ولذلك كانت وصية الله لنا فيما يختص بتلقى الكتاب ألاّ نكون أشبه بالبعير الذى يكون حظه من الأشياء أن يحملها وكفى « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » .

الرياء في العبادة

ورد في بعض الأحاديث ما يفيد الترغيب في إخفاء التصدق الذي يبذله المؤمن حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .. والدين الإسلامي يحب ألا يكون المرء في طاعته لله ، وابتهاله لمولاه . وخضوعه لأمر من أوامره اللازمة ، وواجباته المطلوبة ، يعلنها لغيره إعلان المباهي بإتيانها ، المفاخر بامتثالها ، لأنه إنما يعامل ربه فقط وهو لا يحب أن يتخذ ذلك شركا لخداع الخلق ، واصطياد عقولهم ، واللعب بأفئدتهم ، والتمويه على أوهامهم .. وقد شنّع القرآن الكريم على جماعة ممن يجعلون ذلك تجارة نافقة « يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » وفي آية أخرى يتوعد هؤلاء الذين يقفون لله موقف الخاشع الخاضع ، ولكنه خشوع الذي يريد أن يقول القائلون عنه إنه رجل يتقي سخط مولاه ، ويراقب الذي خلق السماوات «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون». والمراؤون أشبه بالمنافقين الذين وصفهم الكتاب أشنع وصف ، ونعى عليهم أبلغ نعي ، وكشف عن سوأتهم أوضح كشف « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » .. وقد كان المنافقون سبب نكبة المسلمين في أول الأمر لأنهم أشاعوا الضعف في صفوفهم ، والتخاذل بينهم ، وتفرق الكلمة لديهم ، والتهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن أصبح الناس لا يبالون بالمعاصي يرتكبونها ، والفحشاء يمكنون لها ، وبذلك صاروا مسلمين بحكم « شهادة الميلاد » لا أكثر ولا أقل ، وليس لهم بعد ذلك من الدين إلا أنه

آخر الأشياء فى حسبانهم ، وأبعد الأشياء عن وجدانهم ، يشتغلون به كما يشتغلون بالعبث فى سلوكهم وآدابهم .. وكذلك فعل المراؤون حين ظنوا أن العبادة إعلان يصل صداه إلى الأسماع ، ويبرق مداده فى الأبصار ، ويقول القائلون بسببه كان فلان وكان .. فأصبح الإقبال على الطاعة مجرداً عن الامتثال ، والاستجابة إليها خالية من الرغبة .. والنبى ﷺ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان يحذرنا هذا المصير المزرى ، والنهاية الشائنة ، إذ يقول : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع » وكنا نرد عليه رد المنكر المستبعد لأننا نعلم أن أمته فى سبيلها إلى الكثرة المخيفة ، والسواد الذى يظلل الأرض ، ويملأ فجاجها ، وهنالك سأله سائل قائلا : أمن قلة نحن يارسول الله ؟ فقال لا ولكنكم كثرة كغثاء السيل .. وما كنا ندرى — حينئذ — أننا سنكون كثرة كغثاء السيل ، يتحكم غيرنا فى مصيرنا ، ويستبد بخيرنا ، ويبالغ فى إعناتنا ، ويسوقنا كما يسوق السائمة ، ويفرض علينا ما يريد أن يفرضه بحكم « المواقع الاستراتيجية » أو الدفاع عن العالم الحر ، وهكذا من ألفاظ السياسة المطاطة التى تبيح لنفسها كل جبروت وغلبة ، وسيادة وسلطان ، ومن الخطأ فى الحكم ، والخطل فى الرأى ، أن يظن ظان أن الدين شىء والدنيا شىء آخر ، وأن المرائى فى عبادته ، وضعف المتدين فى دينه ، وانحراف المسلم عن الشريعة السمحة ، لا صلة له بكوننا أسرى فى أيدى أعدائنا يتحكمون فينا ، ويستغلون أوطاننا ، ويستبدون بنا ، ويذيقوننا الخسف والهوان .. لأن ذلك القول لا يقوله إلا جاهل بالحقائق أو مكابر فيها .. والدين هو نظام للدنيا يرسم خطوطها ، ويبين معالمها ، ويهدى فيها إلى التى هى أقوم ، لأنه يتحكم فى علاقة الإنسان بالإنسان ، وصلة الفرد بالجماعة ، والدولة بالحكومة ، والعامل بالمصنع ، والرجل بالمرأة ، والآدمى بالبهيمة ، والمخلوق بالخالق ، والعالم بالطبيعة ، وعلى ضوء ما تكون تلك الصلة من الحسن والقبح ، والخير والشر ،

تكون السعادة والشقاوة ، والنجاح والإخفاق ، والثواب والعقاب « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » . ومنذ كانت الخليقة على وجه الأرض والشرائع السليمة ، والعقائد الصحيحة ، مقاييس استقامتها على الجادة ، والتوائها عن القصد ، وصلاحيتها للبقاء ، وانتفاعها بالحياة الدنيا ، وخلودها فى التاريخ . وليس أدل على ضرورة الدين للدنيا وحاجة الناس إليه فى أمور المعاش قبل المعاد من تفكير المفكرين فى النظم والدساتير التى تحل محله قبل أن يعرفوا الرسالة ، وينعموا بنزول الوحى ، ويتلقوا بالرضا والقبول مجىء محمد ﷺ لينقذهم من الحيرة والضلال ، والتخبط والتردى .. وحتى أولئك الذين أضلهم الله وأعمى أبصارهم ولم يأخذوا بقبس من الهداية ، ولا بصيص من نور النبوة ، أحسوا بضرورة سيرهم على السنن السوى ، والصراط المستقيم ، فجعلوا ينتحلون النحل ، ويشترعون المبادىء ، ظانين أنها تنير لهم السبيل فلا يتخبط أحدهم تخبط العشواء ، ولا يتعسف تعسف الجاهل ، ثم أخذوا يخلعون عليها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وكانت أشبه ببذور التجارب التى يُرمى بها فى الحقول التى تسارع فى لفظها وعدم قبولها ، ولا يتلقاها أحد إلا بالتمرد والسخط ، والكراهية والاحتقار ، والبغضاء والعداوة « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وها هم أولاء يتطاحنون ويتحاربون ، ويقومون ويقعدون ، دون أن ينتهوا إلى نهاية محمودة ، أو غاية يشكرون عندها السرى .. ومن الغريب العجيب أن تلك المعركة كلما اشتدت أعلنت عن فضل الإسلام ومزيته ، وقد ابتدأ أهل الرأى يمدون أيديهم إليه على أنه « المنقذ من الضلال » غاية ما هنالك أنهم يحتاجون إلى من يعرضه عليهم فى صورته الرائعة ، وثوبه القشيب ، فلا يجدون من يساعدهم على هذه الرغبة لأن « رجال الدين » إما علماء يعرفون حرامه وحلاله ، ووعده ووعيده ، وأوامره ونهيه ... وإما من هؤلاء الذين تزيوا بزيهم ، وزعموا أنهم

« مشايخ » يستطيعون الهداية والإرشاد ، والترغيب والترهيب ، والوصول بالناس إلى شاطىء النجاة ... وكلا هذين لافائدة منه ، ولا أمل فيه ، لأن العلماء اشتغلوا بالخلافات ، وقطعوا سبحهم للتوسل والشفاعة ، والسنة والبدعة ، وفتح باب الاجتهاد وإغلاقه .. ورجال الطرق علة العلل . ومصيبة المصائب ، ولا يستقيم الظل والعود أعوج .. وإذا صح ما يقول النبي ﷺ فيما يتحدث به عن الدين : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه زيف المبطلين ، وتحريف الجاهلين » فإننا نشكو إلى الله أن هؤلاء العدول صاروا فى خبر كان ، وأقفر منهم كل مكان . ولا رجاء إلا فى العهد الجديد ، يبسط عنايته على الأزهر حامى اللغة العربية ، وحافظ الكتاب والسنة ، ليمد يده إلى الأقطار الشقيقة بخيرة أبنائه الذين يعملون على نشر النور والمعرفة ، عسى أن نَسْتَيْقِظَ من هذا النوم العميق .

الجماعات الإسلامية

الجماعات الإسلامية ـ فى مصر ـ قامت على أساس كونها تعلن كلمة الله ، وتحمل الناس عليها ، وتدعو العامة إليها ، بالأساليب المختلفة ، والطرق المتنوعة ، ولهذا كانت المحاضرات والدروس والصحافة التى تصدر عنها ، أو تذاع على جمهور طلاب الفقه والمعرفة ممهورة باسمها ، لا يشك عاقل فى أنها دعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكنا نشكر المقادير المتاحة التى جعلت منها منهلا عذباً لتلاميذ المدارس من هؤلاء الذين حرمتهم الظروف أن يتلقوا بعض المبادىء فى الشريعة المحمدية حتى لا يكون لهم مما يبثه فيهم الملاحدة سم زعاف يبلبل أفكارهم ويزعزع عقائدهم ، ويتحول بهم إلى النواحى المتطرفة الممقوتة . . إلا أن تلك الجماعات لم تلبث أن أصبحت أشبه بالأحزاب السياسية سواء بسواء ، همها أن تكتل طوائف ينظر بعضها إلى بعض نظرة السخرية والاحتقار ، والزراية والحق ، وصار الجميع من الضغينة والحقد ، والعداوة والكراهية ، كفلول الجيوش المهزومة لا يرجى أن يكون منها كتيبة صالحة للدفاع ، قابلة للكر والفر ، وحماية الحصون ، وصد غارة العدوان ، إنما يُرجى منها ـ فقط ـ أن تكون جراثيم تشيع الضعف ، وتنشر روح الهزيمة بين الأفراد . . ولا ترى مع ذلك كله جماعة ترثى لمصير صاحبتها ، أو تعمل على إنقاذها مما تورطت فيه ، وانحدرت إليه ، ولو بإسداء النصيحة الخالصة ، أو إعلان الأسف والألم ، ولكنهم صاروا جميعاً كأهل جهنم « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

وإذا كنا نعلم أن الأحزاب السياسية بتزاحمها على الكراسى ، وتدافعها على الحكم ، وتقاتلها على الأسلاب ، وتدنسها بأقذار الرشوة والفساد ، قد مكنت للغاصب ، وساعدت على الاستعمار ، وعملت على هدم الأمة ، وأساءت إلى تاريخنا فى صفحات الخلود .. فإن هذه الجماعات جعلت يد المبشرين تقبض على مقاتل الإسلام ، وتحاول جاهدة ، مجهودة أن تطفىء نوره ، وتخفى ضياءه ، وتحول بينه وبين المدلجين الحيارى . . وربما كان من الفضول فى القول أن نقول لك إنك حين تختلف إلى ناد من نوادى تلك الجماعات لا تجد فيه إلا اللهو واللعب ، والعبث والاستهتار ، وحمل الأثقال ، والتدريب على الجرى وقطع المسافات . . .
وكان لنا عزاء وسلوى فى بعض المجلات الدينية إلا أن الذين يقومون على تحريرها والكتابة فيها قوم من تجار الورق ، أو عمال الطباعة ، الذين دفعهم إلى المغامرة فى هذا الميدان رغبتهم فى كسب المال ، وجمع الدراهم والدنانير ، ولذلك فإنك لا تجد فيها إلا شرحاً لآية من القرآن ، أو حديث من السنة النبوية ، نقلوها نقلا من بطون الكتب .. والصحف السيارة سامحها الله لا يعنيها من هذا كله أن يكون للدين كلمة نافذة ، أو سلطان مرهوب ، أو شأن يتحدث عنه المتحدثون ، بل إن فيها من يعنيه إلى حد بعيد أن يكون دعاية مشوهة، أو إعلاناً حقيراً ، عن الرذيلة المفضوحة ، والأعراض المهينة ، والشرف المضاع ، والأخلاق السافلة ... وفيها من الكتاب المتحللين من يدعو إلى الفجور والفسوق ، والانحدار والسفه ، وطرح الفضيلة جانباً بعيداً . بدعوى التقدم والتحرر ، والتمدن والحضارة ، لأن العصر الحديث لا يرضى بحجاب المرأة ، ولزوم بيتها ، وعدم اختلاطها بالرجال .. ولكنها لا بد أن تزاحمهم على الوظائف والأعمال ، والمنتديات والطرق ، والملاهى ودور التمثيل .. أما الأمومة والزوجية ، ورعايتها لأولادها ، وقيامها على شئون منزلها ، أو انصرافها لهذه الحياة العتيقة البالية ، فرجوع إلى الوراء ، وقضاء على نصف

المجتمع ، واسترقاق لمخلوق حر لم يرد الله له أن يكون عبداً . . وكان هذا القول المغرى باعثاً لها على أن تتمرد على الرجل ، وتعلنه « بالعصيان المدنى » فكثرت قضايا الطلاق ، وفرار الزوجات من القصور ، وعزوفهن عن هذا الرباط المقدس .. حتى إذا ما أحست بالانتكاس ، وخسارتها للجولة الأولى ، عادت تقول للرجل أنت ، ويقول لها أنت ، وأخذ الباحثون الاجتماعيون وأشباه الاجتماعيين يدرسون المسألة — من جديد — محاولين إيجاد الحلول كأن التشريع السماوى لم يتعرض لها بالسياسة ، ولم يلتفت إليها بالعلاج ، ولم يقل فيها قولته الحاسمة « الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً » .. وقد أصبحت هذه المشكلة من أمهات المشاكل التى تواجهها نهضتنا الحديثة ، وكان الفضل فيها لتلك الصحافة غير الرشيدة . فلما أخذ الناس يتطلعون إلى صحافة مؤمنة تعمل للاسلام ، وتدافع عن الحق ، وتضع الأمور فى وضعها الصحيح ، وتقول للمخطىء أخطأت ، وللمصيب أصبت ، لم يجدوا إلا « مجلة الأزهر » والحديث عنها يؤلم الإحساس ، ويؤذى الوجدان ، ويكدر الصفو ، ويبعث فى النفس لواعج الأسى والأسف ، لأنها دخلتها التجارة والمساومة ، وأفسدها الانتفاع المادى ، والمحسوبية الصارخة ، وتافتنا فإذا رئيس تحريرها غير أزهرى ، وإذا الذين يكتبون فيها من غير رجال الدين حيناً ، ومن رجال الدين حيناً آخر ، ومرة يكتب الكاتب منهم فى الأدب أو فى اللغة ، والخرافة أو التاريخ .. من كل ما لا يتصل برسالة الأزهر أو برسالة رجاله العلماء الأفذاذ ، والمصلحين الأخيار ، فى حين أن لهذه المجلة ميزانية ضخمة لو أنها كانت تصرف على إحياء الكتب الدارسة ، والمعاجم المفقودة ، والمؤلفات التى يؤلفها أصحابها خدمة للاسلام ،

وتنويهاً بشأنه ، ودعاية له ، لكان ذلك أجدى وأنفع ، وأبقى وأصلح ، وأجدر أن يكون له شكره من الله والناس ، وقد رددنا هذا الرأى ، ونشرناه فى الصحف والمجلات ، وبعثنا به إلى جماعة المسئولين ، ولكنه كان صرخة فى واد غير ذى زرع .. والشأن دائماً أبداً فى مثل هذا التوجيه — وفى الأزهر بخصوصه — أن يذهب فى الهواء .. لا لأن القائمين عليه من تبلد الحس ، وموت الضمير ، بحيث لا يستجيبون للحق ، ولا يستمعون للواجب ، ولا يصيخون لدعوة الإصلاح . . ولكن لأنهم تعودوا أن يتهموا أصحاب الأقلام النظيفة بالأهواء والأغراض . وسبب ذلك أنهم من مخلفات العهود المظلمة ، من الأحزاب المنحلة ، والسياسة البائدة ، والملكية الغاشمة ، وصلوا إلى مناصبهم بحكم الوضع لا بحكم الطبع.. فاللهم إليك وحدك نفزع مما نلاقيه ، ونتضرع مما نقاسيه ، ونسألك الرحمة واللطف ، والسداد والرشد ، والاستقامة على الجادة الصحيحة ، والمهيع الواضح ، إنك أنت رب الأرباب ، والهادى إلى الصواب ..

التربية الإسلامية

من الأمور التى يتحتم على المصلحين أن يتناولوها بالعناية حين يفكرون فى النهوض بالدين ، والأخذ بيده إلى المستوى اللائق به « التربية الإسلامية » لأن لها ثمرة لا تنكر فى إعداد جيل قوى نافع ، يبنى أمة فتية وثابة متطلعة ، وشعباً طامحاً إلى المعالى ، راغبا فى المجد . . وهذه التربية ليست من الأمور الهينة السهلة ، لأنها تستدعى ثلاثة عوامل ، كل منها يجب أن يكون له أثره الفعال ، وهذه هى المدرسة والمنزل والبيئة . .

فالمدرسة وفيها الأساتذة و الرفاق والفراغ الواسع من الوقت الذى يمضيه التلاميذ هنالك ، وعلى هؤلاء الأساتذة والرفاق والفراغ الذى يمضيه الناشىء معوّل إلى حد بعيد جداً فى تكوين أخلاقه ، وتربية وجدانه ، وتوجيه سلوكه ، وتهذيب ذوقه وشعوره ، إلى الدرجة التى تجعله يحترم دينه احتراماً يسيطر على طباعه وعاداته ، ويتحكم فى تصرفاته العامة أو الخاصة . . وهذه ناحية على جلال خطرها ، وعظم شأنها ، وقيمة تأثيرها إيجاباً أو سلباً نغفلها كل الإغفال دون أن نعطيها حقها من الحساب والتقدير . . لأن الدولة نفسها حين تختار المعلم الذى تكل إليه أمر التعليم ومحو الأمية ، لا تنظر فيه إلا إلى ناحية الشهادة التى يحملها ، والمسوغ الذى بيده ، والجواز الذى صار به أهلا لأن يضعه هذا الوضع . . وفى الوقت نفسه لم يكن الجدول الذى بيده يحتم عليه شيئاً وراء إنهاء المقررات موزّعة على الأيام والأسابيع التى يتضمنها العام الدراسى ، فلا هو يستطيع أن ينفع ، ولا هو يستطيع أن يرضى ضميره الذى يحدثه تارة ما بأن يجعل نفسه بمثابة الوالد

الشفيق على ولده ، وهكذا تكون المدرسة خضما واسعاً تموج أمواجه ، وتقذف أعاصيره ويحيط به الخطر والخوف ، واليأس والرجا ، فلا ينجو منه إلا من لاحظته عناية الله ، وتولاه لطفه الخفى ، وتوفيقه الصحيح . . والشكاية الصارخة تتكرر فى كل زمان ومكان من أن الدين لم يأخذ حظه من التقدير والاحترام فى المناهج الدراسية حتى ينصرف إليه أبناؤنا وبناتنا الانصرافَ الذى يجعل له فى نفوسهم ذلك السلطان المتمكن ، والشعور الصادق ، والتقديس المرجو ، بحيث يكون لهم حصانةً واقية من الإسفاف والقلق ، والميل والاضطراب ، والتفريط والتهاون ، والزيغ والإلحاد ، والانحدار والسقوط ، والضعف والمرض .

والمنزل يلعب دوره إلى حد بعيد فى هذه التربية وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه ، وسر ذلك — كما يقولون — أنه فى هذه المرحلة من السن يكون كالصحيفة البيضاء يكتب فيها الكاتب ما شاء من سطور وكلمات . . وكل ما يتلقاه من العادات والتقاليد ، أو السلوك والآداب ، والأخلاق والاعتقاد ، يرجع إلى المحاكاة والأخذ ، والنقل والتلقين ، مما يحيط به من أفراد الأسرة التى تلازمه ، وتعيش معه ، ولا سيما الوالد والوالدة ، لأن إلفه لهما ، ورغبته فى الانقطاع إليهما ، وكونه أشد حباً لشخصيهما ، يجعله كثير الميل إلى أن يكون صورته معادة منهما.. ولهذا يرى الإسلام أن مهمتهما شاقة ، ومسئوليتهما ثقيلة ، وإن أحدهما حين ينحرف عن الجادة ، ويلتوى عن القصد ، لا يتحمل وزر صنيعه الذى صنعه فحسب ، ولكنه يتحمل — كذلك — وزر اعوجاج ابنه أو بنته . . ومن الواجب على الوالد والوالدة أن يعطيا لأبنائهما أحسن المثل من الحركة والسكون ، والقول والعمل ، والنوم واليقظة ، والقيام والقعود ، والأكل والشرب ، والصحة والمرض ، وحسن المعاشرة ، وسلامة الذوق ، ودقة الرأى ، وسداد الفكر ، وبعد النظر .. أما المصلح الاجتماعى فإنه يحكم على الرجل المنحرف والمرأة المنحرفة

بالفشل فى الحياة الأسرية ، وأن الأجدر بالمجتمع الذى يعيشان فيه أن تكون له القيامة عليهما ، باعتبار أن هذه المملكة الصغيرة التى يشرفان على سياستها هما فيها أشبه بالوكيل الذى يحق لموكله أن يعزله عن التصرف حين يتحسس منه الطيش والسفه ، لأن الولد للدولة لا لأبيه ولا لأمه ، ولا لذوى رحمه من أهله وقرابته وهو معنى قريب من الشريعة المحمدية التى ترى أن الفرد فى الأمة أشبه بالعضو من الجسم عليه يتوقف صلاحه وسلامته ، وبه يكون شقاؤه وسعادته ..

وأما البيئة فإن شأنها شأن المدرسة والمنزل من حيث التأثير والتوجيه وغرس الفضائل والرذائل ، والأخلاق والعادات .. إلا أن السيطرة عليها ، والتحكم فيها ، غير ميسور للوالد والوالدة .. ولهذا كان عليهما أن تكون سيطرتهما على الولد أو التلميذ أو الناشىء الذى جعل الله لهما الرعاية له والنفوذ عليه ، فلا يتركانه لرفاق السوء ، أو زملاء الشر ، أو بطانة الفساد .. من هؤلاء الذين لا يدركون معنى الشرف ، ولا يفهمون حقيقة الكرامة ، ولا يعرفون الواجب ، ولا يحسون برسالتهم المستقبلة فى عالم الغد .. وإذا كان النبات لا ينمو ولا يترعرع ولا يثمر الثمرة المأمولة منه إلا حين يغرس فى منبت خاص ، وتتولاه عناية خاصة ، فكذلك التربية للأولاد والعناية بهم تحتاج من أولياء الأمور إلى ذلك كله . . وفى الحديث الشريف : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ..

والبيئة وإن كان علماء التربية يخصونها بالحديث ، ويفردونها بالبحث ، إلا أنها جزء من المجتمع العام الزاخر بالأخلاط والأجناس ، والميول والطباع ، والمعتقدات والنحل . . ومن هذه ما يمكن التصرف فيه ومنها ما يمكن تحويله وتغييره ، إلا أن هنالك أموراً تتأثر بها «التربية الإسلامية» وفى الإمكان استغلالها للنفع ، واستخدامها للصالح ، واستعمالها فى التهذيب .. ومن ذلك المسارح والملاهى التى أصبحت معاول هدم ، ومباءات فجور ، ومواطن رجوع إلى الوراء فى القومية

الإسلامية . . وكان من اللائق بنا كدولة تحترم نفسها — على الأقل — أن تشدد الرقابة على روادها ، وأن نضرب على أيدى العابثين فيها ، وأن نتخير لها الروايات التمثيلية حتى لا تساعد على الخنى أو الفحش . . ولكننا تركنا أصحابها يعبثون ، وروادها يفجرون ، وعشاقها يهتكون ويفتكون . . . ومن ذلك — كذلك — الإذاعة وأنا لا أتحدث عنها حديث المتخيل ، ولا حديث المتجنى ، فإن أكثر الناس لا ينظر إليها بعين الرضا ، ولا يقدرونها التقدير المحترم . . ومن هذه كلها يأخذ أبناؤنا ، وينشأ فلذات أكبادنا ، ويتعلم رجال الغد،ويتكون الجيل المستقبل ، ويعتمد الوطن المنكود ، ويقول القائلون إننا دولة مسلمة نبكى على الإسلام لأنه ميراث آبائنا وأجدادنا ، وبه عزتنا وكرامتنا ، وعليه يقوم بناء دولتنا الناهضة ، وصولتنا الشامخه ، وكبرياؤنا الجدير بتاريخنا العظيم . . . فاللهم حول حالنا إلى أحسن الأحوال ووجه نفوسنا إلى أقوم الوجوه ، واجعل لنا فى الدين الرغبة الصادقة ، والحب الخالص ، والتجارة الرابحة ، والعيش النافع ، والأمل الباقى . . .

الذى يرجع إلى مادة شرع فى لسان العرب يجد أنها تفيد معانى متنوعة ، ومفاهيم مختلفة ، كلها تدل على الخير والبركة ، والظهور والوضوح ، والسمو والارتفاع ، والمساواة وعدم المفاضلة ، والوصول والبلاغ . . لأنه يبتدىء الكلام عنها فيقول شرع الوارد الماء تناوله بفيه ، وشرعت الدواب فى الماء دخلت فيه ، والشريعة فى لغة العرب موارد الشاربة التى يشرعها الناس ، ولا يسمونها بهذا الإسم إلا إذا كان ماؤها لا ينقطع . . ومن ذلك الآية « ثم جعلناك على شريعة من الأمر » وجاءت شرع بمعنى ظهر ومنه شرع الإهاب عن الشاة إذا سلخه . . وفسرت به فى قوله سبحانه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » وقوله — أيضاً — «شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله».. وعلى هذا جاءت كلمة الشارع للطريق الأعظم ، وشراع السفينة ، وشرع نحوه الرمح أى أقبله إياه ، وسدد نحوه . . وجاءت دالة على عدم تمييز أحد الشيئين عن الآخر ، فى مثل قول القائل ونحن فى هذا شرع أى سواء لا يزيد أحدنا على أخيه أو ينقص . . وورد فى لامية الطغرائى :

مجدى أخيراً ومجدى أولا شرع
والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل

ومن الغريب ما جاء فى المعاجم الواسعة ، والأسفار الضخمة ، من قولهم ، شرعك هذا أى حسبك وكافيك . . أما علماء الفقه الإسلامى فإنهم يعرفونها بأنها

الجهل ، وطمست عليها غباوة الغى .. فإذا هى صحيحة بالإيمان ، باليقين ، رقيقة رحيمة بما تلقته من توجيه وإرشاد ، مضيئة مشرقة بما قبسته من نور العلم والهداية ، والتقوى والمعرفة .. يبارك الله لها فى صحوها ونومها ، وحركتها وسكونها ، ويجعل المزيد من الخير فى كل ما تأتيه من عمل ، أو تتناوله من سلوك .. وهى ظاهرة لا غموض فيها ، ولا تعقيد فى تكاليفها ، ولا التواء فى قضاياها ، لأنها واضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار ، قرآنها بلسان عربى مبين .. والسنة النبوية المطهرة فصلت مجملة ، وخصصت عمومه ، وأخذها الصحابة بالرضا والقبول ، لأن قائلها لا ينطق عن الهوى . . وبذلك كله استقام المعوج ، وصلح الفاسد ، ولان الصلب الشديد ، ورق القاسى الغليظ ، وألف الله بها بين الأهواء المتنافرة ، والميول المتباعدة ، والنفوس المتناقضة ، فأصبح هؤلاء وهؤلاء بنعمة الله إخواناً . . ووصلوا إلى هذه الأخوة بغير عنف ولا تكلف ، لأنهم علموا أن الذى أرسله ربه رحمة للعالمين على مثال طيب من العفو والصفح ، واللين والشفقة ، والرأفة والعطف ، والحب والمودة ، والتواضع والأدب ، والعفة والزهد ، والقناعة والرضا ، والصدق والأمانة ، والجود والإيثار ، والرغبة فى الخير العام ، والنفع الشامل . . واتخذوا من حياته قدوة صالحة ، ومنهاجاً واضحاً ، وشرعة متبعة ، وسبيلا مسلوكة ، فأضفى الله عليهم من ظلاله الظليلة ، وسحائبه الوارفة ، وبره المحبب ، ماجعلهم ملائكة تمشى على الأرض . . ولم تكن تلك القدوة وحدها سنتهم فى تلقى الدين ، ومعرفة اليقين ، واتباع الأوامر ، واجتناب النواهى ، ولكنهم كانوا يتدارسون ويجتهدون ، وينظرون فى الدليل ، ويبحثون فى المصدر ويقلبون النصوص على وجوهها . . وكم تركوا لنا

من آثار ، وبينوا من معالم ، ورسموا من خطوط ، ودعموا من بنيان ، وشادوا من قصور ، وبهذا آمنا بأن الله لم يتعبدنا بما يرهقنا ، ولم يكلفنا بما يخرج عن استطاعتنا . . ولا أحب أن يظن الظانون أن انتفاء الحرج عن الدين معناه أنه من السهولة واليسر ، بحيث يعيش أهله عيشة الترف والتدلل ، والنوم والتواكل ، لا يلتزمون من التكاليف ما يتنافى مع رفاهتهم ، ولا يأخذون من الأوامر ما يتعارض مع لذائذهم ، ولا يقبلون على شيء من الأشياء إلا إذا كان الباعث عليه الرغبة فى نفوسهم ، والميل فى أفئدتهم ، والحب فى داخل ضمائرهم ، فان كان هنالك جهد شاق ، أو طاقة شديدة ، كان ذلك شفيعاً لنا أن نتحلل من الواجب ، وأن نفر من اللازم ، وأن نصبح فى حل من الترك ، مع أن الشريعة التى تأخذ أهلها بهذا الأسلوب من التربية شريعة لا تهذب أمة ، ولا تثقف جيلا ، ولا تقوم جماعة من الجماعات ، أو تعلم شعباً من الشعوب ، اللهم إلا فى يقين المجانين ، واعتقاد من تجردوا من العقل ، ونفضوا أيديهم من الأمل فى عودته إليهم . . والشريعة الحقة لا تربت على أكتاف أبنائها ، ولا ترخى لهم عنان الأهواء النازلة ، أو الأغراض المسفهة ، بل تعودهم على الشظف ، وتأخذهم بمعانى القسوة ، وتحملهم على الجهد المضنى ، والمشقة المتعبة ، لأنها تريد منهم أن يكونوا خلفاء فى الأرض يعلنون للخير ويشيعون المعروف ، ويعملون على أن تسود المساواة والعدل بين الناس لا فرق بين عربى وعجمى ، ولا رومى وحبشى ، وما كانت التفرقة إلا سوساً يأكل الأفراد والجماعات ، ويباعد ما بين الطبقات ، ويزرع العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ، وأهله وذويه ، كما حصل فى بعض الديانات التى جعلت الرهبان والملوك أشياء خصوا بها ، وتميزوا بسببها « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

ونستطيع ـ إلى هنا ـ أن نقول إن هذه الشريعة لم تجىء لإعنات الناس

وقتلهم إلى حد أن يتعطلوا عن الـكسب والعمل ، والسعى والطلب ، والتجارة والبيع ، والصناعة والإنتاج ، كما أنها — كذلك — لم تجىء لتضع الثدى فى حلوقنا ، وتقول لنا ما يقول القائل :

هنيئاً لريا ما تسكن الجوانح وإن طوّحت بى فى هواها الطوائح

وأنها مع كونها حداً وسطاً بين اللين والشدة ، والعسر واليسر ، لم تقصد إلا إلى الأخوة والحب ، والمودة والألفة ، والبر والمعروف ، والنفع والإصلاح، وأن تعاليمها إذا لم تنته بذويها إلى ذلك فإنهم كاذبون فى دعوى كونهم يؤمنون بها ، أو يحـكمونها فيما شجر بينهم . . وأن الشر سيظل فى الدنيا يغزو أهلها ، ويهدد بنيها ، ويفتك بالمحبين لها ، ما داموا على ضلالتهم العمياء ، وجهالتهم الجهلاء ، وزعمهم الطائش ، ورأيهم الآفن ، ورحم الله أسلافنا السابقين ، وآباءنا الأولين الذين كانوا صورة صادقة للرجل الصالح والمؤمن الحق ، يخافون عقابه، ويرجون ثوابه ، ويعملون لوجهه وحده لاشريك له . .

تفاوت الدرجات

علمنا من دراستنا لهذا الدين ، ومطالعاتنا لأسفاره وكتبه ، وتعاليمه التى جاء بها الرسول الأمين محمد ﷺ أن تفاوت الناس فى الدرجات وتباعدهم فى المنازل، ووصولهم إلى الغاية المرجوة من رضوان الله وفضله وعفوه ، لاترجع إلى الإجهاد فى الطاعة ،والمشقة فى العمل ، والعنف فى العبادة ، ومواصلة الليل بالنهار فى الصلاة والصوم ، وما شاكل ذلك من ضروب التكاليف والواجبات .. وأن هذا الدين لايوصى بالإنقطاع إلى المسجد ، والاعتكاف فى الخلوة ، وقطع السبح كله لله « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » . . وقد جاء القرآن الكريم مؤيداً لهذه النظرية معترفاً بها ، حاثاً عليها ، إذ يقول فى وضوح واضح ، وبيان بيّن « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . . وكأنه لا يعتبر الكثرة الكثيرة ، ولا الثروة الضخمة ، من فنون القول والعمل ، إنما معوّله — دائماً أبداً — على الكيف لا على الكم ، وعلى الصفة لا على الموصوف .. ومما جاء فى السنة النبوية أن الرسول رضون الله عليه كان ذات يوم يتحدث فى جمع من الصحابة، ثم سكت كأنما يستعرض فى ذهنه شيئاً ، أويذكر ماضياً بعيداً ، وهنالك اشرأبت إليه الأعناق ، وأصغت إليه الأسماع ، واتجهت إليه القلوب ، عسى أن يكون وراءه خبر ، أوأن يكون بعده حديث ، أو ينطوى تحته سر من الأسرار فلم يكن إلا أن قال لهم فى صوت حلو ، ونغمة حبيبة « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فظلوا يترقبون ليروا من هو هذا الذى يطلع طلوع القمر ، ومن

هو هذا الذى يأخذ من اهتمام رسول الله هذا القسط الوفير ليخبر عنه أنه من أهل الجنة ... وزاد من دهشهم الداهش ، وعجبهم العجيب ، أنه لم يقل هذا القول مرة واحدة ، ولـكنه قاله أكثر من مرة ، وأعاده فى أيام متوالية « يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة » . . . وكان دهشهم أكثر وأكثر أن هذا الرجل الذى يخبر عنه النبى ﷺ لم يكن من المجتهدين فى العبادة ، الممتازين فى الطاعة ، الذين يتحملون عناء السهر للتهجد والصلاة ، إنما كان من هؤلاء الذين ينـكرهم من يعرفهم ، ويجهلهم كثير من إخوانهم ، ولا يكبر صنيعهم فى النسك أحد من الناس ... ولذلك فقد دعا الفضول واحداً من الناس أن يحتال عليه لينزل فى ضيافته رجاء أن يعرف من أمره ما عسى أن يجهله ، ويقف من مكنون نفسه على ما كان يطويه ، ولم يكن من المسلمين إنسان يرغب عن تقدير النبى ﷺ له ، وثنائه على عمله ، ومدحه لسلوكه ، وحبه لسيره على سنن الدين ، ونهج الشرع الشريف ، لهذا فهم يتنافسون فى الخير ويتسابقون فى البر ، ويود كل منهم أن تـكون له الحظوة عنده ، لأن ذلك مظهر من مظاهر رضا الله سبحانه وتعالى عنه ... ونزل ذلك الرجل ضيفاً على الذى بشره الرسول بالجنة ، وكان حريصاً جد الحرص على أن يُحصى عليه نومه وصحوه ، وركوعه وسجوده، وأكله وشربه وصلاته ووضوءه ، فما راعه إلا أنهُ غير متـكلف شيئاً يزيد به على الناس ، بل راعه منه أنه أقل من المتوسطين — حينئذ — لأنه يؤدى الفرائض الخمس فى أول الوقت وينام سواد الليل إلا قليلا منه ، فلم يسعه إلا أن يقول له ، بأبى أنت وأمى إلاأخبرتنى خبرك ، وأنبأتنى نبأك ، وأظهرتنى على ماخفى من سرك ، وهل لكسوى تلك العبادة التى رأيتها ، أوالطاعةالتى علمتها ... فقال له لا شىء إلا أننى رجل أمسى وأصبح وليس فى قلبى مثقال ذرة من حقد على أحد ، فقال له بهذا فضلتنا ، وامتزت علينا ، ووصلت إلى الغاية المحمودة ... وفى هذه الصورة الرائعة من إرشاد النبى ﷺ لقومه فى الدين، وتعليمه لهم كيف تـكون العبادة ،

و توجيهه إياهم إلى الخير ، ما يدل أن الولاية لله ، و الزلفى منه . و الوصول إليه ، مدارها على أن يهتدى المكلف إلى هذه النهاية ، ويصل فى تهذيب نفسه إلى هذا الحد، **لأن** المقصود الأساسى من إرسال الرسل ، ونزول الكتب ، ومجيء الشرائع ، و بيان التكاليف ، هو أن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . . . و الله جل جلاله حين يرغب الإنسان فى التصدق على الفقراء ، والبر بالمساكين وإخراج زكاة المال والماشية والبذل فى سبيله وعلى حبه ، إنما يرجو أن يكون التراحم و التواصل وشيجة لا تنقطع ، وعلاقة لا تنفصم ، وعروة لا يعتريها وهن ولا ضعف ... ولهذا ينادينا بالسلم و السلام ، والأمن والاطمئنان « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » و يخاطب حبيبه المصطفى ﷺ فيقول « و إن جنحوا للسلم فاجنح لها و توكل على الله » ... وهذا الصحابى الجليل الذى يقول لصاحبه ولكنى « رجل أمسى وأصبح وليس فى قلبى مثقال ذرة من حقد على أحد ، يذكر بهذا فضيلة هى أم الفضائل ، وجماع الخير كله ، لأن الحقد لا يحل قلباً مسلماً ، ولا يعيش فى ضمير إنسان كامل الإنسانية ، ولا ينجم عنه إلا الوبال والشر ، والإيذاء والضر ، والسخط والغضب ، والأذى والسوء ، والنفاق الفاضح ، والرياء المكشوف ، والفرد الذى يحمله فى جنبه جدير به أن يكون جرثومة تفتك بالمجتمع ، وتقضى على الشعب ، وتأتى على الأخضر واليابس من الأمة التى هو واحد منها.. إلى جانب كونه من الأمراض الدفينة التى تعمل عملها فى خفاء ، وتدس سمها فى خلسة ، وتبطش بطشها فى الظلام ، لا تعلن عن نفسها فيعلن الناس عليها الحرب ، ولا تظهر لهم فيقابلوها بما تستحقه من المطاردة واللعن . . وهو كذلك من الأدواء الخبيثة التى يستعصى علاجها ، ويستحيل طبها ، ويبعد أن يرضى صاحبها طموحها وتطلعها ، وامتداد نظرها ، ودقيق إحساسها . . وهو من المعاول الهدامة فى بناء الأمم والجماعات لا تقوم مشاكلهم إلا به ، ولا تدب الفرقة بينهم إلا من أجله ، ولو كان فى الجنة

التى وصفها الله بكونها فى عرض السماوات والأرض لأفسدها ، وأحالها إلى جحيم دائم ، وسعير لافح ، ولكنه طهرها منه حتى لا يدخل الشيطان به إلى النفوس، ويتسرب منه إلى الأفئدة ، ويتمكن بسببه من العبث ، ويقول تباركت آلاؤه « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين » . . والنفوس الإنسانية بحكم كونها بشرية ربما كان من الصعب عليها أن تغالب هذا النزوع ، وأن تقضى على هذا الوجدان ، وأن تقتل تلك الجرثومة الخبيثة لأنها أشبه بالطبائع والاستعدادات التى هى من صنع الله لامن صنع الناس ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ... إلا أن الدين علمنا أن النفس التى يغمرها نور الإيمان ، ويملؤها ضياء المعرفة ، وتشتغل بتقوى الله ، لايجد الشيطان فيها مكانا يسلكه، ولاموضعا يسكنه . وهنالك يتحكم فيها صاحبها دون أن تتحكم فيه ، ويُصَرفها دون أن تصَرفه ، وبهذا يكون التفاوت بين الناس ، فيكون منهم الولى المقرب ، والصالح المحبب ، والصديق الذى ترجى بركته ، والشهداء الذين تتفتح لهم أبواب الجنة من غير حساب ، والله ذو الفضل العظيم .

الإخلاص في طاعة الله

المسلمون في طاعتهم لله ، وخضوعهم له ، ونزولهم على أمره ، واجتنابهم لنواهيه ، قلما يتجاوزون في ذلك كله أداء الواجب والخروج من عهدة التكليف.. أما كونهم يستشعرون نفوسهم المهابة والخشية ، والرهبة والخوف ، فإن هذا من الأمور التي لا تدور في خيالهم ، ولا تخطر ببالهم ، والنبي ﷺ كان يقول « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وهو لا يقصد من القرب حقيقته لأن الله لا يبعد عنا ، ولا يفارقنا ، ولا تفصل ما بيننا وبينه الأسوار والحدود ، والأبعاد والمسافات ، والأزمنة والأمكنة ، والأوهام والصور ، ولكن المقصود من هذا القرب معنى آخر ، وهو استجابته الدعاء ، وتحقيقه للرغبة ، وحدبه على المسلم ، ورعايته له ، وعطفه عليه ، لأنه أسلم إليه وجهه ، وألقى إليه بقياده ، وصرف إليه جوارحه ، فإحساسه به وحده ، واشتغاله لم يكن بسواه ، وجدير بمن يقصد الكريم هذا القصد ، ويلتجيء إليه هذا الالتجاء ، ويتزلف منه هذه الزلفى ، ألا يخيب له قصد ، أو يتخلف له رجاء ، إلا أن تلك الحال إنما يتصورها على ما هي عليه من الاتصال اتصالا وثيق الارتباط ، متين الوشائج ، من يتصور الإخلاص لله إلى حد خلو الذهن إلا منه ، وانصراف القلب إلا عنه ، واحتباس النطق إلا بذكره ، وبذلك يكون قربه منه ، واستجابته له . ولهذا لما نزل قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقع من نفوس بعض المسلمين موقعاً غريباً ولم يسعه إلا أن يجيء إلى الرسول ويقول له إن فلاناً يصلي ولكنه لاينتهي عن الفحشاء والمنكر ، وكان رده عليه أنه يرجو أن تنهاه صلاته عن

الفحشاء والمنكر . . . ولذلك يقول بعض المفسرين إن المعنى الذى ترمى إليه الآية ، أن الشأن فيها أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، لأنها تتكرر فى اليوم والليلة خمس مرات ، ويتكرر معها القرآن الذى هو شفاء لما فى الصدور ، وهدى وموعظة للمتقين ، وبخاصة فاتحة الكتاب ، وهى تشتمل على آيات تعلن عن ربوبية الله للناس ، ورحمته بهم ، وملكه ليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب ، والجنة والنار ، والصراط والميزان ، وأن أرباب التيجان ، وأصحاب الصولة والصولجان ، والنفوذ والسلطان ، يجيئون إليه فى ذلك اليوم حفاة عراة غرلا ، لا يغنى عنهم مالهم من الله شيئاً ... وما من شك فى أن لتكرار هذه المعانى للذى يتدبرها المسلم تربية وتهذيباً ، وهو أقل ما تعطيه المهابة والخشية ، واطراح الحول والطول ، والجاه والنفوذ ، فلا يكون المرء إلا مستحضراً للخوف مما يضمره الغيب فى هذا اليوم الذى يقول الله فيه لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد . والذى تقرع سمعه هذه المواعظ ثم لا يتعظ لا يمكن أن يكون مصلياً بمعنى الكلمة ، بل هو مصل بحكم التقاليد الموروثة ، والعادات المنقولة . والذى يُقال فى الصلاة من كونها يأتى بها أصحابها امتثالا خالياً من الإذعان ، بعيداً عن الخضوع ، مجانباً كل المجانبة للاخلاص فى طاعة الله ، مجافياً كل المجافاة لما تقضى به هذه العبودية الفقيرة ، إلى السيد الغنى ، الذى يمنح الصحة ، ويبذل القوة ويُضْفى الأمن والسلامة ، والرضا والسعادة ، ويسبغ على الناس البر والخير « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » يقال فى كل الطاعات ، وفى جميع العبادات.

والواقع أن للانسان ناحيتين يتجاذبانه جزراً ومداً ، وإرخاء وشداً ، وطاعة ومعصية ، وغياً ورشداً ، وعقلا وطيشاً ، وهوى وحكمة ، وحصافة رأى ، وحماقة تدبير ، لأنه جمع بين الملائكية والحيوانية ، ولكل من هذين رغبات ونزوع كلاهما يتناقض مع الآخر ، ولا يتلاقى معه عند نقطة واحدة ، وعلى قدر ما يحارب المرء حيوانيته الطائشة ، وهواه الدنىء ، وميوله الحقيرة ورغباته التى لا تسمو به

إلى العالم العلوى ، تصفو نفسه ، ويطهر قلبه ، ويدق إحساسه ، ويرق ذوقه ، وتطيب سريرته ، وتكون أنشودته المحببة ، ومناجاته لرب الأرباب ، وخالق الخلق ، ومدبر الكون ، بالليل والنهار ، وفى الخلوة والاجتماع ...

فياليت ما بينى وبينك عامر   وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين   وكل الذى فوق التراب تراب

وهذه مرحلة من العبودية لا يصل إليها إلا من تجرد من الدنيا تجرد القالى لها ، الزاهد فيها ، العازف عنها ، الذى لا ينظر إليها نظرة المقبل عليها ، الحريص على أن يكون من فرسانها الراكبين لخيولها ، الطامعين فى مجدها الخادع ، وسلطانها الخلاب ... وحينئذ لا يكون حاله مع الله إلا حال الحاضر معه ، الواقف بين يديه ، تحمله الرهبة والخوف ، على أن تسكن جوارحه ، ويتطامن كبرياؤه ، ويطرح حوله وطوله ، وهيله وهيلمانه ، وتلك هى ما تسمى عند المتصوفين «المراقبة» وهى منزلة إذا بلغها العبد ، كان أرجى للقبول ، وأحرى بالرضا ، وأجدر أن يكون فى ساحة المغفرة ، لأنه يكون مشارفاً لدرجة الوصول إلى « المشاهدة » . . . وقد كان ﷺ يروض أصحابه على أن يجاهدوا أنفسهم لتدنو منها ، وتنتهى إليها ، وتطرق بابها ، من كثرة ما يبالغون فى التقوى ، ويكثرون من الخشية ، ويدأبون على التخلص من أوضار المادة ، وأدران العيش ، إذ يقول « اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . . . والمؤمن الحق هو الذى تكون صلته بالله هكذا ، قائمة على استحضاره له فى حواسه كلها ، يراه ببصره ، ويسمعه بأذنه ، ويشمه بأنفه ، ويلمسه بيده ، ويتصور أنه محيط به فى الجهات التى تكتنفه ، والفراغ الذى يتحيزه :

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

وهذا قدر من الولاية يتساوى فيه الظالم والضالع ، والقوى والذى لا يقدر ، وهى منزلة حين يصل إليها الواصل فيكتفى بها ، ويحمد عندها السرى ، ويقول لناقته اشرقى بدم الوتين ، يكون من هؤلاء الأنانيين الذين يعيشون لأنفسهم لا للناس ... وما على هذه الوتيرة يحب الدين من أهله أن يكونوا ، ولكنه يحب أن يكون المسلم كالجندى المجهول للانسانية كلها يعمل الخير لا يبغى عليه الجزاء ، ولا يترقب المثوبة ، ولا ينتظر أن يقول قائل عنه إنه صاحب ذلك الأثر الطيب ، والجهد المشكور ... وأنه إذا لم يكن بره مبذولا ، ومعروفه شاملا . وإحسانه عاماً ، ونفعه حاصلا ، فجدير به أن تبتلعه الأرض التى تُقله . وحياة الرسول ﷺ كانت مثالا واضحاً لهذا النمط العالى من الإيثار والتضحية ، فما عُرف أنه اختص نفسه بما يدل على شح وبخل ، وأثرة وأنانية ، بل كان لا يفتأ يقول فى كل وقت ومناسبة : « خير الناس أنفعهم للناس » ...

الغنى والفقر

كثيرون من الناس ربما اقترنت عندهم الولاية بالفقر والمتربة ، والبؤس والحاجة، والجوع والعطش، والفاقة والحرمان ، زاعمين أن ذلك كله أشبه بالتمهيد لها ، والسبيل الواضحة إليها ، لأن الغنى من شأنه أن يكون طريقاً إلى الغواية ، ووسيلة إلى التمرد ، وذريعة إلى الطيش والانحراف .. وفى القرآن الكريم « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » وهو كلام قد يكون له نصيب من الصحة إذا لم يكن الدين الإسلامى يحث المسلم على الكسب والتحصيل ، والسعى والعمل ، والجد فى طلب الرزق ، وجمع المال ، لمواجهة الحوادث وقضاء الحقوق الواجبة من تربية الأولاد ، والإنفاق على الزوجة ، ومساعدة الأقارب ، وصلة الرحم ، وبناء السبل، وإقامة المساجد والمستشفيات ، وتسليح الجيش ، وفتح المدارس لمطاردة الجهل ، ومحو الأمية ... ونحن نعلم أن الدين يطلب من أهله ألا يرضى الرجل منهم أو المرأة بأبخس الحظوظ ، أو يقنع بأدنى الدرجات ، أو يكتفى بالقليل التافه ، ولكنه يطلب منه أن ينافح ويكافح ، ويكد ويجد ، ويناضل ويقاتل ، ويزاحم الجموع ، ويشق الصفوف ، ليكون كما يقول أبو فراس الحمدانى . .

وإنا أناس لا توسُّط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ويرى أن القناعة والزهد لا تكون فى القعود عن الطلب ، والعزوف عن السعى ، والإخلاد إلى الأرض ، وأن قول الرسول « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » لا تكون إلا فى آخر المطاف ، ونهاية الشوط ، بدليل الآيات التى تحث على العمل ، وترغب فى الاجتهاد ، وتدفع إلى أن يكون المرء كالنحلة

«وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ... فاذا خاب سعيه ، وكبا جواده ، وعاد بخفى حنين ، فحينئذ يقول له اقنع بما قسم الله لك ، ولا يحملك إخفاقك على أن تهلك نفسك أسى ، أو تقتلها هماً ، أو تحقد على إخوانك الذين صادفتهم الجدود ، ووافتهم الحظوظ ، فإنهم لم يأخذوا ما بيدك ، ولم يغتصبوا رزقك ، ولم تعطهم أنت « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذن لأمسكتم خشية الإنفاق »... غير أن ذلك لا يحول القدر ، ولا يمحو المكتوب ، ولا يؤثر فى علم الله ، ومن قضى عليه بالغنى كان غنياً ، ومن قُضى عليه بالفقر كان فقيراً ، وفى هذه الحال لا يجدى الأخذ فى الأسباب ، ولا مباشرة الوسائل ، ولا مواصلة الليل بالنهار دأباً وعملا ، وهنالك ينادى المنادى من مكان قريب ..

وليس الغنى والفقر من حيـــلة الفتى

ولكن حظوظ قُسّمت وجدود

والحقيقة التى لا يختلف فيها اثنان ، أن رجوع كلمة الغنى والفقر إلى المال على معنى كثرة الثراء وقلته خطأ لا يغتفر ، وتسامح لاينسى ، لأن الغنى أصله الاستغناء، والفقر أصله الافتقار .. وقد يستغنى الإنسان عن الشىء دون أن يفتقر إليه ، من غير نظر إلى كثرة المال وقلته ، ولا مندوحة من تسميته غنياً .. ومن هذا مايسمع الناس من الدعاء « اللهم اغننا بحلالك عن حرامك » ... ولكن جماعة من هؤلاء الفقراء جاءوا إلى النبى عليه السلام يشكون إليه أن أناساً من الأغنياء يصومون كما يصومون ، ويصلون كما يصلون ، ويبذلون جهودهم فى مختلف أنواع الطاعة لاينقصون عنهم مثقال ذرة ، وهم بعد هذا وهذا ، يزيدون إنفاق المال فى سبيل الله ، فقالوا « ذهب أهل الدثور بالأجور» وهنالك طمأنهم على أن أبواب

الخير واسعة ، ومجال المعروف فسيح ، ومواطن البر أكثر من أن تحصى ، وفى التسبيح والتحميد ، والتهليل والتكبير ، وإماطة الأذى ، ودفع الضر ، ودرأ المفاسد ، وإرشاد الضال ، ورد الغيبة ، ورعاية الحرمات الواجبة للمسلم على أخيه المسلم مندوحة لرحمة الله ورضوانه ... ومن هذه الحادثة اخترعوا قضية يتناظرون فيها ، ويتجادلون عليها ، يدلى كل منهم بحجته ، ويأتى ببرهانه الغنى الشاكر والفقير الصابر ... ففريق يرى أن الغنى الشاكر له عند الله سبحانه وتعالى منزلة لا يدانيها سواه ، ولا يصل إليها غيره ، وذلك أنه أدى حقوق ثرائه ، وواجبات ثروته ، وتكاليف ماله ، وحقوق غناه . وهى معان لم يكن من السهل عليه أن يقوم بها ، لأن الفطرة البشرية من شأنها — كما يقول القرآن — « وأحضرت الأنفس الشح » تنقبض عن المعروف ، وتمسك عن الخير ، وتبخل بالإحسان ، وتضن بما يزيد عن حاجتها أن تبذل منه للمضطر ، أو تجود به للعائذ ، وإذا صح لها أن تعطى عافياً ، أو تمد يدها لبائس ، فهى إنما تغالب تلك النوازع ، وتحارب هذه الدوافع ، وتعانى من جراء ذلك كله الكثير من المصاعب والشدائد ، وانتصارها — حينئذ — أشبه بانتصار الجندى فى ميدان الوغى ... وكل هذه من غير شك بطولة لا يستطيعها إلا من رزقهم الله جلداً على الكفاح ، وصبراً على الممارسة وثباتاً للأعاصير الهوجاء والرياح الزعن ... ويقول هؤلاء إن تلك الاعتبارات لا توجد عند الذى تربت يده من المال ، وصفرت راحته من الغنى ، وتجردت نفسه من حطام الدنيا ، فهو مستريح الخاطر ، مطمئن الفؤاد ، ناعم البال ، لا يقاسى من تكاليف الدرهم والدينار ما ينغص عليه عيشه ، أو يكدر صفوه ، أو يقلق راحته ... وكل ما هنالك أنه يتحمل مضاضة الحرمان ، ويتذوق ألم الحاجة ، ومذلة الفقر ، وهى أحاسيس سلبية لا تساوى شيئاً إلى جانب الأحاسيس الإيجابية التى ينوء بها الغنى الشاكر حين يبذل ويعطى ، ويجود وينفق ويؤتى المال على حبه ... ولكن الفريق

الثانى يأبى إلا أن يكون هو صاحب الجولة الأولى ، والمكانة المرموقة ، لأن الفقر مع كونه يعوق عن المجد، ويحول دون النهوض ، ويقف حجر عثرة فى سبيل الإصلاح ، يفسد الطباع، ويؤذى الغرائز، ويجعل صدر صاحبه ضيقاً حرجا ... فإذا كان له بعد ذلك طاعة لربه ، واستجابة لداعى مولاه ، وكف لنفسه الأمارة بالسوء عن المحارم، كان هذا هزيمة للهوى المسف ، والرأى الآفن ، والميل الطائش ، والنوازى السافلة ... وكلا هذين الرأيين لا يتجاوز أن يكون جدلا وكفى .. وتوفيق الله وراء الغنى والفقر ، وعلى المسلم أن يعلم علم اليقين أن لله أساليب فى الابتلاء ، فتارة تكون فى الغنى ، وأخرى تكون فى الفقر ، وأن القلب إذا كان عامراً بالإيمان، آهلا بالتقوى ، لا يضيره أن تقبل الدنيا أم تدبر ، وتضحك له أم تبكى وتبتسم له أم تعبس ، وتشيح بوجهها عنه ، أو تسعى بقضها وقضيضها إليه ..

وكن رجلا كالضرس يرسو مكانه

ليطحن لا يثنيه حلو ولا مر !!

الفيوضات الإلهية

الفيوضات الإلهية ظواهر طبيعية يؤمن بها كثير من الناس ويرون أن المرء متى صفت نفسه ، وانقطع الانقطاع كله إلى الله سبحانه وتعالى فلا تشتغل جوارحه إلاّ به ، ولا يسكن قلبه سواه ، استقرت الحكمة فى فؤاده ، وجرت ينابيعها بعد ذلك على لسانه معارف ربانية ، وهنالك لا يحس صاحبها بها ، ولا يعلم هل هى كتاب يقرؤه من عالم الغيب ، أم سر تنكشف عنه الحجب ... والدين الإسلامى لا ينكر أن المولى جل جلاله يسدى مواهبه ، ويمنح فضله ، ويعطى عوارفه ، ويبذل خيره ، لمن يختارهم من هؤلاء الذين وصلوا حبالهم به ، وربطوا أسبابهم بأسبابه ، وعلقوا وشائجهم بوشائجه ... وقد جاء فى القرآن الكريم « واتقوا الله ويعلمكم الله » والعامة تقول : « التقوى هى الحبل الأقوى » وصح عند كثير من رجال الحديث أن النبى ﷺ كان يقول : « من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ... وهى أدلة شاهدة على أن للانسان لحظات من الوقت يستطيع فيها أن يكون ربانياً ، ويسمو عن ظلام المادة المعتمة ، والأجسام الداجنة ، والصور السوداء ، وحينئذ يكون له عقل يعى ، وإدراك يميز ، ورأى يفصل به الخصومة ، ويقضى به على الخلاف ، ويثوب بواسطته إلى الرشد ...

وكان الرسول صلوات الله عليه قبل مبعثه يضيق ذرعاً — بينه وبين نفسه — لما كان عليه قومه من الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والطيش المزرى ، والوثنية الممقوتة ، ولم يجد ما ينقذه من هذا الحرج الذى يعانيه ، والألم الذى يحس به ، إلا البعد عنهم ، والاعتزال لمجالسهم والنأى بفؤاده المتطلع إلى الحق ، المشرئب إلى النور ، إلى حيث يجد نفسه فى عالم آخر يسمو عن سفاسفهم ، ويترفع عن خزعبلاتهم ... فكان يصعد إلى جبل عال من أمكنتهم ، مرتفع عن صخبهم ، ناء عن ضوضائهم المزعجة ، وجلبتهم المقضة ، وأصواتهم المنكرة ، وكان هذا

الجبل هو حراء بمكة ، وفى غار له فى أعلى القمة يتحنث الليالى ذوات العدد ،فلا يعود إلا إذا نفذ الزاد ليجدد غيره ، وما زال ـ هكذا ـ إلى أن صفت روحه ، ودق إحساسه ، وطهرت سريرته ، وحلق فى أفق واسع من رضوان ربه ، فنزل عليه الوحى قائلا له « اقرأ » فلم يكن ذلك غريباً عليه ، أو مجافياً لاستعداده ، نابياً عن ذوقه ، ثقيلا عليه .. ولذلك فإن جبريل حينما فتر عنه فترة طويلة همّ أن يلقى بنفسه من شاهق الجبل ليموت تخاصاً من تلك الأزمةالتى يعانيها ، والقلق الذى يحس به وزاد به من ذلك قول المرجفين إن محمداً قد قلاه ربه وتركه ، ولم يطمئن له خاطر ، أو يسكن له روع ، إلا بعد نزول قوله جل جلاله « والضحى والليل إذا سجى ماودّعك ربك وما قلا ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » لأنها جعلت الأمل يدب إلى قلبه ، والرجاء يعاود نفسه ، والرغبة الصادقة تسرى فى دمه ، ليتصل منه ما كان مقطوعا ، ثم لم يزل الوحى ينزل عليه بالخير والبر ، والفيض والجود ، والنعمة والإحسان ، والغيث الذى يُحيى به الله الأرض بعد موتها ، إلى أن تكامل الجنى ، ونضج الثمر ، وقال له ربه « أليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » وهنالك أخذ يحن إلى ملك أوسع ، وعالم أفيح ، وساحة أكثر طولا وعرضاً ، فاختاره الله إلى جواره ..

ولم يشرع الإسلام الصوم إلا لهذا المعنى من السمو الروحى ، والصفاء النفسى ، الذى يتخلص فيه الجسم من تلك الأغلال الثقيلة ، والقيود التى تحجبه عن ذلك الأفق الواسع ، والفضاء المترامى ، والجو الذى لا نهاية له ، ولهذه المعانى يكون الناس فى رمضان على حال أخرى من الجود والإحسان ، والرأفة والرحمة ، والتواصل والعطف ، والطاعة والتقوى ، والرجاء والخوف . . وتتسلسل الشياطين ، وتتفتح أبواب الجنة — كما أخبر الحديث النبوى — وسواء أكان ذلك على الحقيقة أو المجاز فهو تصوير للروحانية التى تكون حينئذ ، من ميل الخلائق إلى الخير ، وبعدهم عن الشر ، ورغبتهم فى البر والمعروف . ولعل الطب البشرى يعترف بمبدأ من

المبادىء الصحية تتصل إلى حد بعيد بالاستعدادات الإنسانية ، والفيوضات الذهنية ، ذلك المبدأ هو قول الحكماء «البطنة تذهب الفطنة» .. لأن البطن التى تشتغل بما فى داخلها من الطعام لا يمكن لصاحبها أن يعى وعياً تاماً ، أو يدرك إدراكاً سليماً ، أو يحكم على الأشياء حكما مجرداً عن الهوى والميل ، والعلة والغرض ... وقد علمنا الرسول فيما علمنا من أدب، ولفتنا إليه من صالح الأعمال، وجميل الخلال ، ألا نتناول المصحف الشريف إلا وقلوبنا مجتمعة، وأهواؤنا مؤتلفة ، وإدراكنا متيقظ ، ورغبتنا مواتية ، ونشاطنا مُستعِدٌّ ، وحواسنا مقبلة ، وأشواقنا متلهفة ، وذلك حين يقول «أقرءوا القرآن ما ائتلف عليه قلوبكم » وهو حديث لو تأمله المتأمل لعلم أننا لم نمثل الهدى الصادق والإرشاد الخالص ، والتهذيب الصحيح ،لأننا — كما قلت — نعيش على الكم لا على الكيف ، ونعتز بالأرقام لا أكثر ولا أقل ... مع أن الذى نادى به القرآن للناس إنما هو التدبر والفهم ، والاتعاظ والهداية ، والاستعانة به على تذليل المشاكل ، وتدبير الأمور، واستخدام القوى ،والانتفاع بالكائنات ، ولهذا يقول : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » والتدبر كما يدل عليه معناه فى اللغة النظر الدقيق ، والإحساس المرهف ، والتتبع بإمعان ، لما تُلوحُ إليه الحروف الملتئمة ، والكلمات المتجاذبة ، والتراكيب التى صاغها الإبداع الإلهى سحراً يأخذ بالألباب ، ويلعب بالأفئدة .. فإذا كان القارىء أشبه بالآلة الناطقة يسمع السامع ضجيجها فيظن بها الظنون ، ويأخذه الفتون ، ثم تنكشف له عن تسجيل ، يفضحه الترتيل ، ويزرى به التأويل والتعليل ، فهذا الذى يقول فيه وفى أمثاله الحديث «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه».. أعاذنا الله من ذلك كله ، وجعلنا لا نقرأ فى كتابه ، ولا نقف على عتبة بابه ، ولا نتمثل له فى الصلاة ، أو نحتمى بحماه ، أو نلوذ بكنفه الواسع ، ورحابه الطاهرة ، إلا ونحن على حال من الإخلاص والأدب والخضوع والطاعة تجعلنا نسبح فى محيطه المتلاطم ، وبحره الصاخب ، وساحاته الفينانة بالورد والزهر ، والأكمام والثمر ، والأغصان والشجر ، والحور والولدان ، والجود والاحسان ، والرضا والرضوان . . عسى أن تصادفنا عناية منه يكون لنا منها بعد الضيق الفرج ، إنه هو نعم المولى ونعم النصير ...

أوصاف الأولياء

أولياء الله فى الدنيا أشبه بالعطر الطيب الذى يصيب الناس من رائحته ما يبعث فى نفوسهم البهجة والفرح ، والسروح والارتياح ، والميل والرضا ، والغبطة والانشراح ، ثم يحملهم ذلك كله على أن يتفيئوا ظلالهم ، ويقبلوا على مجالسهم ، ويتقربوا إلى الله بمحبتهم ، والمحاكاة لهم ، والاقتداء بهم . فلا بد أن تكون لهم من المزايا الصالحة ، والصفات الحميدة ، والخلال النادرة ، ما يجعلهم أمثلة عليا لأخلاق المسلمين ، ونماذج جليلة لسجايا المؤمنين . . وعلى الرغم من كون نعوتهم ظاهرة ، وخواصهم لاتخفى ، فإن كثيرين منا قد يلذهم أن نتناول مميزاتهم بالسرد وعلاماتهم بالتعداد ، لتكون الأسوة بهم واضحة ، والوقوف على حقائقهم لاتحجبه الأطلال ، ولا تموه آثاره الرسوم ... وأول ما يلاحظه المتأمل لهم ، أو الباحث عنهم ، أنهم فى عبادتهم لله ، وترددهم على رحابه ، لا يجعلون ذلك نسكا يأتون به ، ولا طاعة يلتزمونها ، ولا واجباً تحتم عليهم التكاليف أن يخضعوا له ، ويقوموا بما يقتضيه . وإنما يجعلونه إرواء لغليلهم ، وشفاء لما فى صدورهم ، وإشباعاً لما تحس به نفوسهم من الظمأ إلى رضوان الله ، ومن أمارات هذه المعانى تعلق قلوبهم بالمساجد تعلقاً ينبىء عن اللهفة والشوق ، والصبابة والهوى والاغتباط والحب . . وليسوا كهؤلاء الذين لا يقومون بالأوامر إلا اضطراراً ، ولا يأتون بها إلا ازوراراً « وإذا قاموا إلى الصلاه قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » ..

ولا نعنى بهذا أن تكون صلتهم بالمحراب مانعة لهم من الإحسان إلى إخوانهم فى الله وشركائهم فى الإنسانية ، وزملائهم فى الدين ، وعشرائهم فى الحياة ،

ونحن نعلم أن نظام العيش يدعو إلى الارتباط ، ويبعث على التواصل ، ويُحتِّم أن يكون الناس متبادلين للمنافع ، ليستقيم حالهم ، ويحسن بقاؤهم ، بل لا بد أن يكون لهم جانب مع الخالق ، وجانب مع المخلوق . . . وأن يكونوا فى هذا الجانب وهذا الجانب فى نهاية التواضع والأدب ، والكياسة والحزم . . . سلوكهم مع الله سلوك عبودية وذلة ، وتفان فى الطاعة والاستقامة ، والانقياد والإذعان ، والشوق والحنين ، والامتثال والرضا ، والإيمان الخالص ، والاعتقاد الصحيح ، والاقتناع بأنه هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن بيده الملك وهو على كل شىء قدير . . . وسلوكهم مع الناس وإن كان قائماً على إرضائهم ومحبتهم ، والعفو عن المسىء ، والصفح عن المذنب إلى أنه لا يشوبه شىء من الخنوع والضعف ، والذلة والانكسار ، حتى يقول القائلون إن هذه آدمية مُضَيَّعة ، وإنسانية مهينة ، وكرامة مبذولة أرخص البذل ، ومحتقرة إلى أبعد حدود الاحتقار ... لأن ذلك نوع من الإشراك الذى لا يحل قلباً فيه مثقال ذرة من الايمان بالله الذى خلق الخلق ، ومنح الرزق ، وقدر الحظ ، ووهب الحياة والموت ، وجعل الظلمات والنور وأكثر ما تكون هذه النزعات السامية من عزة النفس ، والاحتفاظ لهـــا بالكرامة الجديرة بها عند أولئك الذين لا ينظرون إلى الدنيا نظرة الحرص والطمع ، والشره والرغبة ، والتكالب والسعار . .

ويلاحظ المتأمل ـ كذلك ـ أنهم يحاسبون أنفسهم حساباً عسيراً ، فلا تمر بهم لحظة من الوقت ، ولا ساعة من النهار ، ولا يوم من الأسبوع ، دون أن يراجعوها مراجعة دقيقة فيما اكتسبته من عمل ، وقدمته من باقيات صالحات . . وهم بالتالى لا يشتغلون إلا بعيوب أنفسهم يُقوِّمونها تقويم الرمح ، ويحاربونها محاربة العدو ويطاردونها مطاردة الوباء . . ولا يمنعهم ذلك من محاسبة الناس أيضاً ، لأنهم يعلمون أن المسلمين فى ترابطهم وتشابك مصالحهم تستدعى حالهم التواصى بالأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلايقول قائلهم « أنا وحدى » . . ولا يقول وما علىّ أن تعمر الدنيا أو تخرب ، أو ينحو منحى هؤلاء الذين يتمسكون بظاهر الآية «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل » ... ولا يمنعهم من ذلك كله أن يلاقوا العنت ، أو يحتملوا المشقة . . لأن النبى ﷺ كانت حياته وقفاً على الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكم لاقى من أجلها ، وتكبّد فى سبيلها ، وجاهد لإعلاء شأنها ، حتى رضخوا رأسه بالحجارة ، ورموه بالقاذورات . وجاء فى بعض الروايات ـ وقد سألته عائشة عن أشد ما صادفه ـ أنه لما يئس من استجابة أهل مكة خرج هائماً على وجهه فانتهى إلى عبد ياليل بالطائف يعلن فيهم كلمة السماء ، وينادى بما أنزل الله عليه ، فلم يكن منهم إلا النفور والإعراض ، والتكذيب والصد ، وإغراؤهم الصبيان ليحصبوه بالحصى . . وهنالك غشى عليه فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب ، وحينئذ جاء إليه جبريل يقول له : لقد سمع الله قولك لقومك ، وسمع ما ردوا به عليك ، وهذا أخى ملك الجبال إن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل . . . فكان رده على هذا الكلام لا يا أخى جبريل فإنى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً . . وفى كثير من أمثال هذه المناسبات لم يدب إلى قلبه اليأس ، أو يمش إلى نفسه الفشل ، أو يحدثه خاطره بالقعود عن احتمال المخاطر ، ويعلق على هذا بقوله « اللهم إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى » . .

أما أن يكون الولى بعيداً عن العامة ، معتزلا لمجالسهم ، ليخلو إلى ربه ، وليتجنب أوزار القيل والقال ، فإن ذلك يرجع إلى استعداده الشخصى ، وطاقته النفسية . . فإن استطاع أن ينفع الناس ويرشدهم ، ويصلح ذات بينهم ، ويقضى على الشرور والآثام المتفشية فيهم ، وأن يسلم له دينه وعرضه ، كانت المخالطة أوفق به ، وأكرم له ، وواجبة عليه . . لأنه فى سبيل الله ، ومن أجل طاعته ...

وإن كانَ لا يقوى على احتمال هذه الأعباء ، وركوب تلك الصعاب ، كان الأولى له أن يفر من الجماعة ، وأن يعيش وحده إلى أن يقضى الله فيه قضاءه . . والرجل الحكيم هو الذى يعالج صلته ببنى جنسه بشىء من الحزم بحيث لا يجفوهم بالنأى ، ولا يضر دينه بالاختلاط . . .

ولسنا بهذا الحديث عن أوصاف الأولياء نقصد إلى تحديد ظواهرهم كما هى - فى حقيقة الأمر الواقع - فإن لهم أوصافاً كثيرة كلها ينبىء عن الفضل ومكارم الأخلاق .. ولكننا ندل القارىء على المزايا التى يتحلون بها .. وبعد ذلك ربما كان الولى من هؤلاء الذين يشتبه أمرهم ، ويخفى حالهم ، بل إن بعض الأولياء قد يعيش بين قوم لا يحسون به ، ولا يدركون امتيازه على سواه . . وكلما كان مستور الحال ، لا يظهر عليه ما يجعله فى عداد الأولياء ، كلما كان هذا من فضل الله عليه ، لأن ظهور ولايته أول ما يخشى عليه من الغرور والعياذ بالله ، وهو ما يتهدده بالسخط ، ويتوعده بالغضب ، وينذره بأنه على شفا جرف هار من الرجوع إلى الوراء أشواطاً بعيدة من حياة السفه والطيش . . .

رجاء وختام

المسلمون فى هذه الآونة من الزمن تنوشهم الأحداث ، وتصطلح عليهم المحن وتعمل على إضعاف شوكتهم ، وتبديد قوتهم ، وذهاب ريحهم ، عوامل متنوعة كلها تتلاقى عند غرض واحد ، هو كراهية دينهم ، وعداوة صارخة لشريعتهم ، وهى عداوة حمقاء لأنها لا تقوم على دليل واضح ، أو حجة ظاهرة ، ومثل هذه العداوة التى لا تسكون الخصومة فيها قائمة على اصطراع الآراء ، وتلاقى الأفكار، وتنافس المنطق والبرهان . . لا يُؤمَن جانبها ، ولا يصح للانسان أن ينام لها ، أو يطمئن إلى سلامة عقباها ، وما أظن خطراً داهماً يمكن أن يصيب جماعة من الجماعات كهذا الذى أصابهم ـ الآن ـ فإنهم وصلوا إلى حال من التفكك والانحلال ، والتشتت والتفريق ، جعلهم ينسون أن كتابهم الكريم يعتبرهم أمة واحدة مهما باعدت بينهم الديار، ونأت بهم الأوطان، وميزتهم الطباع والعادات .. وآية ذلك كله أنه يوجب عليهم ـ جميعاً ـ الجهاد إذا أغار العدو على شبر واحد من أرض مسلمة ، أو اعتدى على حرمات أهلها ، من غير نظر إلى الحدود الجغرافية ، أو الفوارق الجنسية . . . والوصية الكبرى التى أعلنها محمد ﷺ إلى أمته فى حجة الوداع « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . . وهو مبدأ من مبادىء هذا الدين ، ودعامة من الدعامات التى يقوم عليها ، وأظنه غريباً إلى حد بعيد من الغرابة ، لأننا نعتقد أن المسلمين فى تركهم له ، وإهمالهم إياه ، قد تناسوه إلى درجة أنهم لا يعلمون أنه من قضايا شريعة رسولهم . ... .ولعل الذى صار إليه أمرهم من التخاذل لم يكن سببه أنهم يجهلون

ولا يعلمون، ويشكون فلا يعتقدون ، ولـكن سببه الأول والأخير أننا لم نعالج أمراضنا الاجتماعية بما تتطلبه من الأدوية والعقاقير ، وأننا مع ذلك ـ أيضاً ـ لم نقدم الأهم على المهم فى مشاكلنا ، وأن الـكبار منا يصرفون أعمارهم كلها فيما لاطائل تحته من العناء والتعب ، فيتكلمون فى الشياطين وحقائقها ووجودها ، أو يتكلمون فى مشروعية سيادة النبى ﷺ ، وأن ذلك جاءت به السنة الشريفة ، أو نفّرت منه ، ونهت عنه .. وقد كانت كلُّ هذه الآراء والخلافات سائغةً مقبولة لو لم تصل بنا إلى ما وصلنا إليه من تنافر القلوب ، وتباعد الأهواء والغايات . . لـكننا تفرقنا تفرق الخصوم ، وتباعدنا تباعد الأعداء ، وأصبحنا كأننا أهل شرائع ، وأتباع أنبياء ...

وإذا كان هنالك دين يقوم على السماحة والصفح ، والعفو والحلم ، والأدب والأخلاق ، وحسن المعاملة للناس ، فإنما هو الإسلام الذى كان صاحبه على جانب عظيم من هذه كلها ، لأن الله سبحانه وتعالى مدحه بقوله « وإنك لعلى خُلق عظيم » وخاطبه فى معرض الاعتراف بسلوكه القويم ، وسياسته الرشيدة ، فقال « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا انفضوا من حولك » ويحكى هو عن نفسه — هدانا الله بهديه — غير مختـال على النـاس ، ولا متـكبر على البرايا فيقول « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وليس بعد هذا التأديب تأديباً « خذ العفو وأمرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقد أجمع علماء التربية ، وأساتذة التهذيب، أنها ملاك الأخلاق ، وعماد الأدب ، ولباب الفضائل ، وخلاصة التثقيف الصحيح ... لأن المصلحين الذين لا يتحلون بها ، ولا يعتمدون عليها ، لا يحصلون من سعيهم على طائل ، ولا يعودون بجدوى ، أو يرجعون بفائدة تتألب عليهم العامة ، وتتحول عنهم الخاصة .. وقد أرشدنا ﷺ إلى أن أساس ارتباط الخليقة بعضها ببعض إنما يرجع إلى هذا المعنى إذ يقول «إنكم لا تسعون الناس بأموالـكم وأرزاقـكم فسعوهم بأخلاقـكم » . .

والحق أن الناس فى هذه الحياة أسرى الاحسان .. وهو إما أن يكون عن طريق المال ، أو الخلق الطيب ، والمعاملة الحسنى ، وكلاهما سبيل إلى اكتساب مودتهم ، واغتنام محبتهم . إلا أن الذى يجىء عن طريق المال غير الذى يجىء عن طريق الأخلاق. وإن كان الأولون كثيراً ، والآخرون قليلا..لأن المنفعة التى تجلب بالمال مادية ، والمنفعة التى تجتلب بالأخلاق روحية، وطلاب المادة أكثر من طلاب الروح .. ولكنه مع الكثرة سريع الزوال ، وشيك النسيان والشأن فى المادة الضن بها ، والبخل ببذلها ، والشح بإعطائها ... أما الخلق الطيب — وهو غذاء للروح ، وشفاء لما فى الصدور فإن الإنفاق منه لا يلحق به نقصاً ، ولا يجلب له غبناً ، ولا يجعله صائراً للزوال .. إلى جانب أنه مستطاع للناس جميعاً . وبخاصة أولئك الذين نصبوا أنفسهم للدعوة إلى الله .. ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى رسم لنا طريق النجاح فيها ، والقيام بها على أكمل وجوهها ، وأحسن أساليبها ، وذلك حيث يقول معلماً لرسول الانسانية كلها كيف يعامل أمته ، ويبلغ كلمته ، ويعلن شريعته « أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ».. والحكمة كلمة شاملة للرفق والهوادة ، والعقل والاتزان . والرزانة والحلم ، والأدب والذوق ، واللباقة والحزم ، والرأى السديد ، والنظر البعيد، ومعالجة الأدواء بما يناسبها من العقاقير من غير عُنف ولا شدة .. وعلى ذلك فإننا نرجو ألا يتخذ المسلمون من دينهم السلاح الحاد للنفور والبغض ، أو الكراهية والشحناء ، وتشتيت الشمل ، وتباعد الميول ، وهم يعلمون أن أخص خصائصه أنه يجمع بينهم ، ويؤلف المتنافر منهم ، حتى لكأنهم شىء واحد فى الإحساس والاتجاه . ولذلك فإنه جل جلاله لا يذكر العرب بنعمة تستوجب شكره ، وتستأهل حمده ، وتوجب على أهلها الثناء عليه مادام الليل والنهار ، أفضل من تلاؤم الأهواء ، وتوافق القلوب ، وتلاقى السجايا ، واتحاد الشمل ، ورأب الصدع « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » . .

وبودى لو يفهم هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم لرفع راية الدين ، وحمل مهمة الوعظ والإرشاد ، وبيان الحلال والحرام ، أن الله لا يحب القلوب المتباعدة ، والأفئدة المتخاصمة ، والجوانح التى تنطوى على الإحن والبغضاء ، وإنما يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .. وأن حرْص النبى ﷺ على وحدة الناس ، وتكثير سوادهم ، واتجاههم إلى جهة واحدة ، كان أقصى غاية له فى مكة حيث كانْ يلاق الأذى والعنت ، وفى المدينة ، حيث جاء إليه جبريل بالعلم والنور ، والهداية والعرفان والوعد والوعيد ... وإذا كانت لنا فى الرسول أسوة حسنة ، فإننا لابد أن نبرهن على أننا نتأسى به ، وننهج نهجه ، ونقفو أثره ، ونمشى على سننه الواضح ، وصراطه المستقيم . . هداننا الله إلى العمل بما جاء به ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

فهرس الموضوعات